الطبعة 2

الحسين افقير

محلبة عَم إبرَاهِيم

رواية

محلبة عم إبراهيم

الحسين افقير

محلبة عم إبراهيم
الطبعة الثانية 2021
الترقيم الدولي : 978-9931-716-39-2

insanfirst@gmail.com
00201113393920

محلة مرحوم – بجوار السنترال العمومي .
تصميم الغلاف :احمد نعيم عميرة
المدير العام : طارق عميرة

محلبة عم إبراهيم

رواية

الحسين افقير

HUMAN
for Publishing and Distribution
دار إنسان للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى والدي العزيزين

إلى إخوتي، وأسرتي جميعا، وأساتذتي الاجلاء، وجميع زملاء الدراسة، إلى الصديق حسن الجوي الذي طالما ألح علي أن أكتب، وها أنا بهذه الرواية أحقق حلمه، ثم إلى أصدقائي الأعزاء.

لن يكون هناك بلد متحضر حتى ينفق على الكتب أكثر مما ينفق على شراء العلكة.

ألبرت هيوبارد.

الفصل الأول

بسم الله ...

بلكنته السوسية بسمل وشمر عن ساعديه، وفتح القفل، فرفع كراج محلبته العتيقة، فكنس الأرضية بعدما أن أخرج الكراسي الخشبية، وأضاء المصباح الخارجي، وملأ الإبريق الكبير بالماء، وأوقد النار في موقد الغاز استعدادا لطهي الشاي للزبائن، الذين سيتوافدون بعد دقائق، ومسح الزجاج الخارجي للثلاجة الوحيدة، والطاولات، بعدما انتهى من المسح أوقد النار في الفرن الخارجي في انتظار أن تأتي ميلودة لتعد لحرشة، ولمسمن لزبائنه. محلبة عم إبراهيم، هي حجرة مستطيلة قديمة البناء، ولكن على رغم قدمها فسقفها مرمم بالجبس البلدي أثمن شيء فيها، والنقوش القديمة، وأرضيتها المزلجة، وعدة رفوف خشبية معدة خصيصا لوضع سلعٍ كعلبِ السردين، والفرماج، والساعة الحائطية القديمة أغلى شيء في هذه المحلبة، وصاحبها الملقب بغاندي نظرا لشبهه الكبير بغاندي زعيم الهند، لو زار الهند لشك الهنديون في أنفسهم، وظنوا أن غاندي مازال حيا يرزق، ولكن يخلق لله من الشبه

أربعين. هذه نكات يحيكونها زبائن محلبة عم إبراهيم، محاولة منهم لإثارة عم إبراهيم، ولكن من أين له بغاندي، وما أصله، وشعاره اليومي ألا وهو جمع المال، ومن عادة عم إبراهيم، أنه ينام واقفا، ولا يصحو إلا إذا أحس بزبون قد دخل محلبته، أو يوقظه صديقه القديم، وزبون محلبته ودليلها سعيد الروندة. يرتدي عم إبراهيم بدلة بيضاء، وسروال من ثوب، وحذاء أسود، ويضع على عينيه نظاراتٍ قديمة.

أقبلت ميلودة طاهية لحرشة ولمسمن، وصبت على الفرن قليلا من الزيت، وراحت تجففه بمنديل أبيض، وصبت فوقه خليط سميدة رقيقة، وخميرة كيميائية، وراحت تكرص بكلتا راحتيها، وقد قدِم الزبائن واحدا تلو الآخر، وقد أعد عم إبراهيم الشاي الساخن، وصففت ميلودة لمسمن في مكانه المخصص، وقطعت لحرشة إلى قطع متساوية، ووضعتها فوق كونطوار، وعم إبراهيم يلبي طلبات الزبائن بصدر منشرح وهمة، وكله نشاط وحيوية، ينتقل بين الطاولات لا يكل ولا يمل، هذه عادته منذ عشرين سنة، رغم تلقيه لسيل من الإهانات من الكبير والصغير، ويساعد المحتاجين فإن كنت لا تملِك مال، فاحكِ له الوضع، ويمنحك أن تأكل، وسبب تفضيل محلبة عم إبراهيم على أخريات لجوها

العائلي وقدمها، وإنسانية صاحبها الذي لا يرد كل سائل أو محتاج خائبا، مهما طلبه السائل، وهي أرحم محلبة بذوي الدخل المحدود. لبث عم إبراهيم في محلبته يلبي طلبات الزبائن. في حين بدأ سناك عبد الله يفتح أبوابه، وهو على يمين محلبة عم إبراهيم، وعماله ينظفون أرضيته بمسحوق تايد والماء، ويكنسون الأرضية الخارجية، ويصففون الكراسي، ويضعون الدجاج في المشواة، وبينما صاحب سناك عبد الله، يمسح قناني المشروبات الغازية، ويدخلها إلى الثلاجة في انتظار تبريدها لتقدم إلى زبائن سناك باردة كما يطلبونها، وبين فينة وأخرى يعطي أوامره الصارمة.

– أيها الأبله أراك تكثر من الزيت هل نحن نجدها.

– لقد تركت موقد غاز مشتعل يا كلب.

فصاحب سناك، عبد الله قصير القامة مكتنز الجسم، يضع طاقية على رأسه، يرتدي جلبابا، فهو رجل جشع لا يعرف الرحمة، ولا معنى الإحسان، يطرد أمام بابه المحتاجين، وينهر السائلين، ويصرخ بصوته الغليظ في وجه المنحرفين، وعن سنتيم واحد يرد زبون، وقمة ذلك أنه

عنيد لا يقبل المناقشة ولا الحوار، وكم من مرات تجاسر فيها مع زبائن على أبسط الأشياء، فيخرج خاسرا في هذه المعارك، فأصبح شخصا معروفا لدى الأمن بكثرة شكايته المتعددة، لا يمر يوم عنده بدون خصام وعناد مع زبون على ثمن أكلة إلى غير ذلك.

بيد أن موسيقى صاخبة، تنبعث من قاعة الألعاب على يمين سناك عبد الله، فهي قاعة مستطيلة الشكل، واسعة الطول، تتراءى لك أضواء خافتة على جنبات القاعة، التي تضم مجموعة من كولفازورات وبيارات، ومن رواد هذه القاعة شباب في عمر الزهور، تراهم يدخنون سجائر محشوة بالمخدرات، ويستمعون لموسيقى بوب، وبلال الجزائري، وبوب مارلي، وينفثون دخان سجائرهم في سقف القاعة، التي عبق جوها بروائح السجائر والمخدرات، واختلطت الأصوات، حتى يخيل لك انك في سوق، مجموعة تصرخ، وأخرى ترقص، وأخرى تقهقه بأعلى صوت، غير مبالين، الشيء الوحيد الذي يرجع الهدوء إلى القاعة هو صاحبها، حينما يضغط على زر الموسيقى فيسكتها، الكل يحدق فيه محاولين الانقضاض عليه، وتفتيت جسده، فيطلب منهم الهدوء، ولكن ما إن يطلق صوت الموسيقى حتى يعود المكان إلى صخبه، وضجيجه، يتناسون تهديدات

المشرف على قاعة الألعاب، ولا يلقون إليه بالا، يعودون إلى عالمهم من خلال المخدرات، وتبدأ كلمات السب والشتم، تخرج من فم المشرف على قاعة الألعاب الملقب بالفهد نظرا لخفته ورشاقته، فينظر إليهم من مخبئه بجسمه الطويل، ووجه أسمر، وعينين غائرتين قائلا:

– أولاد قحاب مالكم ما كتسمعوش.

فينظرون إليه، وكلهم وجوم وحملقة في بعضهم البعض، دون أن ينبس أحدهم بكلمة تسيء إليه، حتى لا يطرُد أحدا منهم من هذا المكان، وسرعان ما عاد المكان إلى حاله، فتأفف من سلوكهم قائلا:

– أولاد زنا.

فتجاهلوا سبابه، وقبائح الكلمات التي يلفظها بحر فمه، وتناسوه وراحوا يرقصون على أنغام موسيقى صاخبة، دون أن ينظروا إلى مخبئه، غير أن صراخ آتٍ من الخارج، استوقف نشاط رواد القاعة، فخرجوا مهرولين يستقصون الخبر، فوجدوا شخصين يتعاركان في الشارع، وكل واحد منهما يتفادى الآخر، كل واحد منهما يطلق من فمه أقبح الألفاظ والنعوت في حق غريمه، ولكن سبب هذا الخصام هو لعبة الورق، عندما

كانوا يلعبون في مقهى السعادة المقابلة لمحلبة عم إبراهيم، كان طبشون انتصر على صديقه زراد، الذي لم يحالفه الحظ اليوم، ولم تبق في جيبه سوى عشرون درهم، حين نصحه طبشون بالتوقف عن اللعب قائلا :

– ما عندك زهر ازراد صافي حبس.

فيصيح في وجهه زراد:

– كمل لعب معايا.

– ماشي سوقك فيا.

بقوا على هذه الوتيرة والسرعة في اللعب، زراد يحاول أن يسترجع نقوده، ولكن طبشون بدهائه ومكره في لعب الورق، يعرف كيف يفوز بهذه الجولات، حتى لم يتبق في جيب زراد ولو سنتيم واحد، ومازال في ذمته عشرون درهما، خسرها كلها فحاول زراد أن يقترض لدى طبشون بضعة دراهم، ولكن طبشون أقسم على أن لا يقرضه سنتيما واحد، حتى يسترجع العشرين درهما التي أقرضها له، فثارت ثائرة زراد، وصفعه على خده، ودوى صوت الصفعة في أرجاء المقهى، بدأت الرؤوس تطل نحو

مصدر الصفعة، فخرج صاحب المقهى من مكانه، وهز رأسه نحو الأعلى صارخا :

– اخرجوا للشارع وتقاتلوا.

فنزل طبشون وقد أمسك بتلابيب زراد، وقبل أن يخرجه من باب المقهى، رفعه برجليه نحو أعلى حتى اصطدم قفاه برجل إحدى الطاولات، وصاحب المقهى إدريس لخواض يدفع الغريمان نحو الخارج، ويصرخ بأعلى صوت قائلا:

– اخرجوا للشارع و فكوا حسابكم.

بعد عراك دام نحو ربع ساعة في الشارع، وأمام أنظار المارة، تطوع أحد الأشخاص وتلفن لمركز الشرطة، وعلى الفور تراءت سيارة الشرطة قادمة بسرعة، فأفسح لها المتجمهرون الطريق، فتم اقتيادهم إلى المخفر، عاد الهدوء إلى الشارع، وتفرق المتجمهرون كأسراب الحمام، كل في طريقه، وعاد رواد القاعة إلى لعبهم ولهوهم، ورجع زبائن المقهى إلى مجالسهم المعتادة، واستأنف اللاعبين لعبهم، فصعد صاحب المقهى البدين إلى السدة طالبا من لاعبي الورق قليلا من الهدوء.

تقع مقهى السعادة في شارع الحسن الثاني، قبالة محلبة عم إبراهيم، وهي مقهى معروفة في المدينة بإدمان روادها على لعب الورق، فراح يؤمها الرواد، هي مقهى مربعة الشكل ذات بناء جديد، ولكنها من المقاهي القديمة في المدينة، وأدخل عليها صاحبها بعض التحسينات بعد أن غير مقاعدها، وطاولاتها المهترئة، والشاشة القديمة ذات اللون الأبيض والأسود، فحلت محلها شاشة تلفاز من نوع هوند–سينما، وحل محل الجدار واجهة زجاجية، وعند مدخلها يستقبلك تمثال صغير أسود بابتسامة مصطنعة، وفي وسط المقهى تقف نادلة المقهى شابة في العشرينات من عمرها، ذات قد ممشوق، وصدر مهزوز، ترتدي روب قصير تثير بسيقانها العارية زبائن المقهى، بينما عبارات الغزل تنهال عليها من فوق السدة، فيما هي ترسم على شفتيها ابتسامة عذبة، وتنتقل بين الطاولات مثل الفراشة ملبية طلبات الزبائن، فهي ذات روح مرحة، تطارد النكات أينما كانت في أرجاء المقهى، ثم ترويها بطريقتها الخاصة.

الفصل الثاني

خلا الشارع من المارة تماما، ولم يتبق في الشارع سوى محلبة عم إبراهيم، وبعض روادها الأوفياء، سعيد الروندة الذي كان في ما مضى حلاقا بزنقة مولاي يوسف، والمخزني عزوز الذي ما فتئ ينظر بين فينة وأخرى مستلقما بعض الأخبار في هذا الليل البهيمي، ونجيب الراوي الشاعر، وبعض من رجال الدين وقارئي كتاب الله، الذين كانوا في وليمة ما، وأكب الرجال على تداول أخبار اليوم، وعم إبراهيم بين منصت ومناقش لتلك الآراء إلا الفقيه التامي، فقد غرق في ذهوله، وأخذته سهوة من النوم لا من هذا ولا ذاك، ولكن رغم ذلك قانع بما رزقه الله، ومؤمن بالقضاء والقدر والجنة والنار .. ولكن حديث اليوم دار حول ارتفاع أسعار الخضر، والمواد الغذائية، ومدونة السير الجديدة، وما تركته من انطباع في نفوس السائقين، وإضرابات ستلوح في قادم الأيام، ورخص سحبت من السائقين، وعائلات تشردت بإعلان تلك المدونة، ودخولها حيز التطبيق وما شابه ذلك، ولكن سعيد الروندة بين مؤيد ومعارض لهذه المدونة، ولا يهمه هذا الأمر، بقدر ما يهمه هو تحصيل يومه من بيع الملابس المستعملة، وبعض الأحذية والهواتف الرخيصة، وكل ما يملك

هو قابل للبيع بمجرد أن تخيم عليه الأزمة، وأن لا يسعفه الحظ في لعبة اليانصيب وسباق الخيول، التي أدمن عليها هو وصديقه عمر زروال الذي اعتاد على زيارة المحلبة كل ليلة، لتداول شؤون سباق الخيول، وما سيسفر عن أرقام فائزة، وتدوين رقم كل سيارة مرت في هذا الوقت المتأخر من الليل، وكان قد خصص غرفة من منزله الضيق، لجمع أكداسٍ من أوراق الرهان، والمجلات التي تحصي تلك السباقات، والجرائد الفرنسية لسباق الخيول، وكتبا عن الحظ، وكيف ستصبح غنيا في غضون ثلاثة أيام، وكل ما يتماشى مع طموحاته المشوشة، حتى غدت الغرفة الضيقة متحفا آثريا، وكان من عادته أن يدوِن كل رقم صادفه في طريقه، أو تناهى إلى مسمعه أو بصره وهو خارج من بيته، أو جالس في المقهى يثمن بها خيرا ويغذي بها أحلامه التي تتلاشى حين تدوسها سنابك الخيل في رهان السباق، فيتسمر في مكانه لحظة الإعلان عن أرقام الخيول الفائزة، ولا يجد الأرقام المعول عليها فتعتريه خيبة أمل جارفة، ويكتسحه الحنق ويلعن الخيل ومن يثق بها، ولكنه رغم ذلك مؤمن بالحظ والثروة معا، وخيط الأمل مازال قائما، رغم الخيبة، واليأس، والقنوط، ومنتظرا، ومترقبا اليوم الذي ستتغير فيه حياته، وتعوضه عن الأموال التي خسرها،

وتنسيه كل الليالي التي أمضاها في سبيل إيجاد الأرقام المناسبة للفوز، والوقت الذي أضاعه في غرفته الكئيبة مكبا على دراسة الأرقام واحدا تلو الآخر، ومتمنيا في قرارة نفسه أن يبتسم له الحظ، ولكن هيهات أن يبتسم لأمثاله من الخاملين، ولكن الحظ لا يعرف الخامل من العامل المجد، فكيف ترى الأيام التي مرت من عمريهما، سعيد الروندة وعمر زروال صديقان منذ الطفولة لا يفترقان، ومازالت صداقتهما تمتد لا حدود لها، وعمر زروال رغم ذلك نجح في دراسته، وتدرج في سلك الأمن، ولكن صبره لم يدم طويلا، فاستمرا سنتين حتى فُصِل من عمله لسبب ما، وكان شديد الخصام والعناد برؤسائه، لا يمر يوم من حياته في العمل دون لجاج أو خصام مع بعض المواطنين، ورغم تلك الخصومات والعناد، كانوا رؤسائه يتسامحون معه عطفا عليه، وليس خوفا منه بل احتراما لوجه أحد أقربائه صاحب نفوذ كبير في الأمن، ولكنه ازداد تعنتا بمرور الأيام، ولا يطيق أوامر رئيسه وتعليماته، وملِئت تقارير ضده فلم يعد يحتمل هذه المهنة، حتى طرد من سلك الأمن بعد تورطه في قضية رشوة، ومضى في عالمه الجديد بلا مال، ولكن رغم الطرد لازال يملك مأوى ورصيد بنكي ادخره لمثل هذه الحالة، وكان إذا غاب عن محلبة

عم إبراهيم يفتقده أصدقائه، ويسألون عنه، هل أصيب بمرض .. أم ماذا غيبه عن المحلبة يوما، بيد أنه محب للثروة وتكديسها، ومع ذلك فهو يعطف على الفقراء، ويمقت الأغنياء على قلتهم.

أما سعيد الروندة، فهو كتلة جسيمة، يرتدي سروالا فضفاض، وبدلة رمادية واسعة، ونظارة قديمة، ذا بطن منتفخ، وصدر مهلهل، ورأس دائري ثقيل الحركة، ومن عاداته أن يتأبط مذياع صغير، يحمله معه أين ولى وجهته، يديره كل نصف ساعة، أو مترقبا ساعة الأخبار، أو مستمعا للأغاني الكلاسيكية القديمة، أم كلثوم عبد الوهاب ... أسمهان.

أما المخزني عزوز فقد تزحزح تاركا مكانه قائلا:

– تصبحوا على خير أيها إخوان.

فتبعه الفقيه التامي، وزملائه قُرّاء القران، بعد أن دعوا مع عم إبراهيم بكثرة الأرزاق والصحة، واتجه كل واحد منهم في اتجاه منزله، تاركين سعيد الروندة وعم إبراهيم في المحلبة، ومضى صوت أم كلثوم يسيطر على المكان، وتردد صوتها القوي في أرجاء المحلبة.

أعطني حريتي أطلق يديَّ ... إنني أعطيت ما استبقيت شيَّ

آه من قيدك أدمى معصمي ... لم أبقه وما أبقى عليَّ

ما احتفاظي بعهودٍ لم تصنها ... وإلام الأسر والدنيا لديَّ

في حين أكب عم إبراهيم في غسل أرضية المحلبة وكنسها، بعدما أن غسل الكؤوس والصحاف والملاعق، وجمع فتات الخبز المتساقط، وصفف القناني الزجاجية في صندوق بلاستيكي مخصص لهم، وظل عم إبراهيم على نشاطه، يمسح زجاج الثلاجة بمنديل أبيض، وحين انتهى من المسح والغسل، عد عم إبراهيم الإيراد اليومي على مهلٍ، وأغلق صندوق النقود بالقفل، ومسح عم إبراهيم على صلعته البراقة وهو يكلم سعيد الروندة، لقد حان وقت النوم يا سعيد.

وانتصب سعيد الروندة واقفا، بعد أن خلت المقاعد، فأسكت المذياع بنقرة من اصبعه، فأدخل عم إبراهيم المقاعد الخشبية، وقنينة الغاز، وأطفأ المصباح الخارجي والداخلي، فساد الظلام إلا من أعمدة كهربائية في الشارع ترسل أنوارها، وأنزل الكراج بخفة، وأغلق القفل، وغادر

المكان صاعدا الى بيته القريب من المحلبة، وغاب شبح سعيد الروندة عن الأنظار بمشيته الثقيلة، وتوارى في ظلمة أزقة المدينة.

الفصل الثالث

في موعد تناول الغداء، وجد عم إبراهيم زوجته السعدية تنتظره، وبدت له الزوجة أشد نصاعة ونظافة من أي وقت مضى، فأرجعته تلك النصاعة إلى أيام اقترانه بها، فتراءت له أكثر اتساقا في ملابسها، على الرغم من آثار السنين الزاحفة إلى محياها وأطرافها، أما جسمها فمكتنز مليء باللحم، وأما الصدر فحدث ولا حرج، ترتدي بيجامة بيضاء منقطة بلون أحمر، وقد بدت تضاريس جسدها، وحركت في عم إبراهيم ذكريات مضت، ذكريات الشباب، وقد أعدت الغداء، وهيئت المائدة، ووضعت الطعام فوق المائدة، وجلس الأبناء ياسين، أسامة، سمير، واحدا جنب الآخر، بعد أن أمرتهم الأم، وجلسا في أدب وخشوع ليس خوفا من الأب، وإنما من بطش الأم، فلم يكن أحد منهم يتجرأ وينظر في وجه أمه، وأكثر من هذا لا تتركهم لمشاهدة برامجهم المفضلة على شاشة التلفاز، ولكن يحسون بشيء من الراحة والحرية في حضرة أبيهم، وظلوا هكذا جالسين صامتين، مرات ينتهزون فرصة انشغال الأم بوضع كؤوس ليموناضة، فيطلبون من الأب درهم أو أن يمنحهم مرة أخرى حلوى أو دانون،

فيتناهى الطلب إلى أذن الأم، فتصرخ فيهم، أو تمسك بأحدهم من أذنه قائلة :

– ما تحشموش.

وجاءت الأم حاملة الخبز، بعد أن قطعته إلى أربع قطع، فوضعت وعاء الخبز فوق المائدة، فطوى عم إبراهيم كم أطراف ابنه الصغير سمير، ووضع أكسار الخبز أمام أبنائه، فمدت الزوجة يدها، وأزاحت الغطاء عن الطاجين، فانبعثت رائحة توابل قوية بمفعولها الذي أهاج البطون بشهوة الطعام، فحافظ الأبناء على هدوئهم، بالرغم من أن الابن البكر أسامة حاول البدء، ولكن بقرصة على ركبتيه من طرف الأم، جعلته يتراجع ويشاهد إشارة الانطلاقة، فمد عم إبراهيم يده الى كسرة الخبز متمتما:

– بسم الله ..

فغمس كسرة الخبز في الطاجين، فتبعته الزوجة، ثم الأبناء، وأكبوا على الأكل بنهم، فلا تسمع صوت يعلو على صوت المضغ، أما الأبناء فيأكلون بقليل من الحذر والحيطة من عقاب الأم، مسترقين النظر إليها، وحانقين عليها من الداخل، فسحناتهم دليل على ذلك.

مدت الأم يدها إلى قنينة مشروب غازي، ففتحتها وراحت تصب في الكؤوس، حتى إذا جاء دور الصغير، صبت إليه قليلا، فأحس سمير بالنقص فسقطت من عينيه دمعة صغيرة، وراح يبكي، فتدخل عم إبراهيم قائلا:

– زيديه شوية خليه يسكتنا.

فتحججت الأم قائلة:

– انه يتبول ليلا على ملابسه.

فلم يزد عم إبراهيم كلمة أخرى، خوفا من عداء الزوجة، أما الابن فتقرفص في ركن البيت، وانكمش كقنفذ يبكي، وبكاءه أزعج عم إبراهيم، فتكلمت الأم بلهجة آمرة نحو ابنها قائلة:

– اقترب أيها الشقي.

فسرت سنة من الخوف في جسد الصغير، وقف يمسح دموعه بكم قميصه، واقترب من جهة الأم، ورجلاه ترتعدان من شدة الخوف، وأمسكته من تلابيب قميصه فنهرته قائلة:

– أنصت مرة أخرى هاد المسخوط.

فجلس على كرسيه دون أن ينظر في وجه أمه، ويسترق النظر إلى أبيه، لعله يعطف عليه، أو يحميه من بطش أمه لأنه صغير ينال القدر الكبير من العطف لدى الأب، يشتري له بعض الهدايا واللعب، بينما عم إبراهيم يتناول بأناة. فاستفسرته الزوجة عن تأديته واجب كراء الشقة التي يقطنون فيها، فلم يجبها حتى أتم مضغ لقمة في فمه قائلا:

– لم يتبق للشهر سوى يومان.

فضحكت الزوجة وتمتمت:

– فيما تنتظر حتى يأتي يخبرنا صاحب الشقة.

فقال عم إبراهيم وقد امتقع وجهه:

– اليوم أديت إيجار المحلبة لصاحبها.

بهذا الجواب لم تجبه بأي شيء آخر، بل جرته نحو موعد سفرها يوم السبت لدى عائلتها بالدار البيضاء، لترى أمها وأبيها، فلم يكن جواب عم إبراهيم بالرفض وتمتم قائلا:

– نهار السبت يكون خير.

فكان عم إبراهيم، لا يرفض أي طلب لزوجته خوفا من بطشها، أو أن تهجره وتتركه لوحده، فهو يحبها إلى حد الجنون، فكان يقوم بأي فعل يرضيها، مرات يكنس المنزل، وينشر الأغطية والأفرشة في السطح، وحين تتظاهر بالمرض، فإنه هو من يطهو الغداء في محلبته، ويصعد به إلى المنزل ليتناوله مع أبناءه، ويغسل الأواني المنزلية، ويقوم بتصبين ملابس الأبناء حتى تشفى الزوجة من مرضها.

بالحق فالعم إبراهيم فإنه يعيش معذبا مع هذه الزوجة، التي لا تعيره أي اهتمام، فسؤالها عن تأديته واجب كراء الشقة، ليس خوفا من طرده من الشقة، بل مغزى لكي يهيئ لها المال الكافي لتسافر به لدى عائلتها، وتوزع عليهم ثمار أتعابه التي أفنى فيها عمره، وسهر الليالي عليها، من أجل أن يرضيها ولكنها غير عابئة به، ولا تقيم له وزنا ولا تحترمه، بل تخرج في الوقت الذي تريد، وتدخل وقت ما تشاء، وأبت نفسها أن لا تأخذ منه الإذن، فما كاد يفارق عم إبراهيم المائدة متجها نحو المرحاض للوضوء، حتى أمرته الزوجة بأن يوصل الأبناء إلى المدرسة، فلم يقدر أن

يجيب بالنفي فجهزت السعدية الأبناء، وارتدوا الثوب المدرسي الأزرق، ونزل عم إبراهيم درجات البيت وهو يتمتم برجاء (ياربي تهدينا)، فتبعه الأبناء من خلفه، وهكذا غادر شقته برفقة الأبناء ميمما وجهته نحو المدرسة القريبة من مقر سكنه بخطوات، فإلتف على محل بائع العقاقير، وسار بضع خطوات متجها نحو باب المدرسة، وقف بالقرب من الباب مترقبا أبناءه أن يدخلوا كل واحد إلى قسمه، حتى خلت ساحة المدرسة من التلاميذ، ورجع إلى منزله، فطرق الباب بخفة فناداه صوت من داخل من طارق

فرد عم إبراهيم قائلا بصوت منخفض:

– أنا.

ففتحت زوجته الباب، ودخل متجها صوب المطبخ، فوجد الماء قد غلي في إبريق، فأغلق الموقد متجها صوب المرحاض للوضوء، فيما زوجته انشغلت بمشاهدة أحد المسلسلات المكسيكية، فلا تفوتها حلقة إلا وتشاهدها، حتى إذا ما أتى وقت خروجها لدى صديقاتها لتعطي آرائها في الحلقة ومن كان ينقصها، فيستمعن لها الصديقات بآذان صاغية،

فيعطين تعليقاتهن وماذا سيقع للبطل في الحلقة القادمة، ومن شاهدهن على هذه التعليقات لحسبهم من ناقدات الأفلام والمسلسلات، وقد خرج عم إبراهيم من المرحاض بعدما أن توضأ، صلى صلاة الظهر وطوى السجادة ووضعها فوق رف، ورجع إلى محلبته، وأقبل على عمله بنفس النشاط الذي واظب عليه منذ سنوات، يستقبل زبائنه بابتسامته المعهودة التي لا تفارق محياه بمجرد أن يبدأ عمله.

الفصل الرابع

اندفع ياسين ابن عم إبراهيم إلى داخل المحلبة كالهارب من يدي قابضه، دون أن يصطدم بإبريق الشاي الكبير، الذي يغلي فوق قنينة الغاز القريبة من قدر الحريرة التي يحركها أباه بمغرف كبير، ريثما تكون جاهزة لزبائنه الذين يتساءلون.

– الحريرة با براهيم طابت.

– ما زال.

– فخرج سعيد الروندة من جموده قائلا:

– لقد أتى ابنك با إبراهيم.

– كنت تسأل عنه منذ ساعات ولم تجده هاهو أتى لوحده.

فتوجه عم إبراهيم نحو ابنه سائلا إياه:

– اين كنت؟

– كنت العب مع أبناء نعينيعة في الحديقة القريبة من الثانوية، هكذا كان جواب ابنه.

فوبخه عم إبراهيم قائلا:

– الحمار قلت لك لا تلعب مع أبناء نعينيعة مرة أخرى، ولكن الابن لم يبالي بتوبيخ الأب، فطلب من أبيه الحريرة والخبز قائلا:

– فيا جوع.

فرد عليه عم إبراهيم:

– اذهب لتجلس ريثما تكون جاهزة.

يخرج الابن راكضا في اتجاه أصدقائه، وعم إبراهيم يصرخ.

– اجي لهنا هذاك الحلوف.

فتكلم سعيد الروندة معلقا:

– جيل كحل ما بقاش كيسمع لوالديه.

فنطق أحد زبائن المحلبة مدافعا عن الابن قائلا:

– دراري هوما هادوك ما عندك مادير ليهم.

وفجاءة رجع الابن يلعب قبالة محلبة أبيه بالخذروف، فاتجه عم إبراهيم نحوه آمرا:

– تعالى.

والابن مستعد لأن يفر.

ولكن خفة أبوه أقوى من الفرار، فأطبق عليه بكلتا يديه وأدخله.

فجلس الابن على كرسي خشبي، متكئا على الطاولة الرخامية، ومد له عم إبراهيم جبانية حريرة وكسرة خبز.

فراح الابن يتناول طعامه في صمت، وحين انتهى من الأكل، وقف متأهبا للذهاب للعب مع أصدقائه، فمنعه أبوه بحجة أن سفاحا يوجد في المدينة يسرق الأطفال، وباتا الرعب في نفسه صغيرة التي تعودت على مثل هذه الأساطير.

– بوعو. جيلالي خانز البوط.

فامسكه من يديه وأجلسه بجانب سعيد الروندة آمرا:

– راجع معه دروس أسي سعيد الروندة.

فسأله سعيد الروندة عن صفحة الدرس.

فتح ياسين دفتي المقرر باحثا عن الصفحة التي أمرهم المعلم بحفظها، فكانت عبارة عن قصيدة شعرية تتغنى بالتسامح لرياض معلوف، فأمره سعيد الروندة بالقراءة، فيما هو يصحح له الأخطاء.

واسترد الولد أنفاسه ليقرأ وانطلق مترنما:

سألتك يا قلب لا تحقد بحبك كن قدوة المقتدي

عرفتك يا قلب سمحا رقيقا كبرعم ورد طري ندي

وكل السماحة فيك تبدت كبحر إذا ما انتهى يبتدي

لولا المحبة لا شيء يغري بعيش كثير الضنى أنكد

وليس التسامح ضعفا ولكن هو النبل بل كرم المحتد

كان سعيد الروندة يهمهم في همس مرددا القصيدة مع إيقاع الولد، ويصحح للابن أخطاء النطق التي يقع فيها، فيأمره عم إبراهيم بأن يضربه إذا ما أخطأ ثانية فيجيبه سعيد الروندة قائلا:

– القراية عم إبراهيم ليست بضرب وإنما بإعطاء الخاطر.

وفيما راح سعيد الروندة يذاكر مع ابن عم إبراهيم دروسه، أقبل على المحلبة سيوح البناي فسلم على الجالسين، وجلس في الركن الخارجي على اليسار، وطلب كأس شاي وسيجارتين من نوع (ماركيز).

جاءه عم إبراهيم بكأس شاي وسيجارتين كما أمر سيوح، فتناول سيوح الكأس يرشف منه رشفتان، ثم ينفخ ليطرد سخونته، فأشعل سيجارته، وينفث دخان سيجارة في الهواء، ويرشف من الكأس، ويتفرج على مؤخرات النساء، ويحملق في كل جسد امرأة وفتاة متمتما:

– الله على زين.

فأجابه أحد زبائن المحلبة قائلا:

– هاد زين خاصك ليه كرمومة (المال).

فدافع سيوح عن تعليقاته:

– يستاهل أكثر من المال هاد زين.

وقال له الرجل وهم يتبادلان اطراف الحديث:

– الزواج يا أخي أحسن.

فتحجج سيوح بنقص المال الكافي للزواج وشقة وعمل مستقر، وفسر أزماته الحالية قائلا:

– خسرت فلوس كثيرة على النشاط.

فأجابه جليسه القروي:

– حتى شي اسيوح ما شاط.

فانفجر الثلاثة بالضحك، وفي هذه الأثناء مرت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها بدينة، مكتنزة الجسم، كبيرة الأرداف، فاستفزها سيوح البناي بكلام قبيح قائلا:

– أرداف كلبة.

فلم تتقبل ذاك الوصف، فرجعت إليه بوجه متجهم، وبصقت على وجهه، وسبته بكلمات نابية، فنعتته بأقبح النعوت فقالت بجد:

– انهض إذا كنت رجلا.

انقض عليها سيوح بالرغبة في الانتقام لرجولته، فضربته بقبضتها على صدره ضربة مذهلة، أشعلت فيه الغضب، وجن جنونه، فحاول أن يلطمها على خدها، ولكن يدا منعته كانت يد أحد فاعلي الخير، وجاء أخوه الفاطمي يلهث وهو يوبخه قائلا:

– لقد فقدت عقلك.

دفعه سيوح بعنف، ولكن أخوه الفاطمي قبض على كتفه قائلا:

– ارفع انفك إلى أعلى حتى لا ينزف الدم منه بكثرة.

وجاءه الفاطمي بكوب من الماء، وراح يغسل، ويمسح الدم المتخثر على ذقنه، تارة ماسحا وتارة يوبخه على فعلته، وجره إلى مجلسه ثم جلسا وهو يحدثه في عتاب.

– ها عاقبة معاكسة النساء.

فتجاهل سيوح عتاب أخيه تماما كأنه لم يسمع صوته، فاستمر الفاطمي موبخا سيوح قائلا:

– أنت البادئ لشتم الفتاة فلم تحترمها.

ولما تجاهله سيوح قال الفاطمي بعصبية:

– هذا السلوك ليس من شيم الرجال.

فتحول سيوح إليه بغضب صائحا:

– ما فات فات ليس شغلك.

أما أخ سيوح حينما سمع هذا الكلام، تزحزح تاركا الكرسي، وحيا الجلساء، ثم ألقى نظرة فاحصة على أخيه، وغابا عن المجلس وعن الأنظار، قبل أن يعود سيوح إلى عادته، معاكسة النساء ومتابعة الحديث مع أصدقائه، فهو من زبائن المحلبة الذين يترددون عليها يوميا إلا أيام الأعياد، يسافر إلى قريته فهو في الأربعينات من عمره، يعمل في ورشة البناء، وكل ما يحصل عليه يذهب في سهر مع النساء والخمر، يدخن

كثيرا في اليوم يدخن نحو ثلاثين سيجارة، وهمس أحدهم في أذن سيوح قائلا:

– هل تعلم يا سيوح أن التدخين حرام.

فرد عليه سيوح جهرا، وهو يشرب الشاي قائلا:

– مراقبة الناس حرام.

وتابع سيوح حديثه دون أن يشعر له بوجود، وراح يحاول النفاذ إلى بواطن الآدميين المارين في الشارع لغير ما سبب واضح، ثم التفت عن يساره فرأى متسول يستعطفه فرد عليه قائلا:

– الله يجيب.

وراح يحتسي مشروب الشاي، ويرمق الوجوه، وإذا بجليسه يميل نحوه قائلا:

– هيا بنا.

فأمسك كأس شايه، وأدناه من فاه فشرب ما تبقى منه، ونادى على عم إبراهيم طالبا سيجارتين، وأدى ثمن للعم إبراهيم، وأشعل سيجارة، ونهض من مكانه، وسار جنبا إلى جنب صديقه في الطريق فانتظار أن يصيدوا إحدى بنات الليل، وسرت حياة الحديث في سعيد الروندة، فأطل برأسه نحو الجهة التي سار فيها سيوح وصديقه موجها كلامه للعم إبراهيم قائلا:

هاد سيوح مجلبة للمشاكل.

فغمغم عم إبراهيم قائلا:

– حفظتي معك الولد اسي سعيد الروندة.

فأجابه سعيد الروندة قائلا:

– لقد حفظ المحفوظات جيدا.

الفصل الخامس

عادت زوجة عم إبراهيم من زيارتها لعائلتها بمدينة الدار البيضاء، فاستقبلها عم إبراهيم فرحا وباشا بعودتها، وعودة الروح إلى جسمه، فهو يحبها، ورغم فرحه بها فهي لا تعير استقباله لها أي اهتمام، فلاقى منها تجاوبا جافا، فحاول أن يوقظ سرورها بالحديث عن أحوال أبيها وأمها وما تحملوه من عناء من أجل شفاء أخيها، وما كان منها إلا أن تومئ بحركة من رأسها بنعم أو لا، ولم تفتر حماسة عم إبراهيم في استقبال زوجته، في ظل جفائها له بكلام قاسي، ولم يكن من الرجال الذين تطول غياب زوجاتهم لدى عائلتهم، أن يبتدئهم بعد العودة بالعتاب على طول الغيبة، والقسوة بل بابتسامة وكلام جميل يستقبلها، وبعض ثياب جديدة، يكون قد اشتراها خصيصا لها ولهذه العودة.

دفع أسامة الباب، واندفع أخوه ياسين كثور هائج، فاصطدم بوجود آمه في البيت فتوقف عن لغطه حين رؤيته لها، لأنه أدرى بعقابها، فما كاد يقف حتى أجبره عم إبراهيم أن يقبل يد أمه إجلالا لمكانتها عنده، ورسالة لها لكي تفهم مغزاها، فانحنى أسامة وياسين يقبلون يد أمهم، فيما

عم إبراهيم يراقبهم، حتى ما إن انتهوا من تقبيل يدها، جلسوا فوق السرير، فيما استرسل عم إبراهيم في الحديث مع زوجته في كل ما يخطر على البال من أحاديث ووقائع الجيران وما شابه ذلك ومن الحوادث التي طرأت في غيابها، فيما هي بين منصتة، ولاهية مع ابنها الأصغر سمير، وعم إبراهيم يروي لها تفاصيل الحوادث الشاذة منها والفادة، التقطت الزوجة بعضا من حديثه والآخر ذهب في مهب ريح، واستخلصت بعضه الآخر من خلال النظر في عينيه، واستفسرته عن تحسن وضعه المالي، ومتى سيقتني لها الشقة التي وعدها بها؟ واخترت من أخبار أبنائها محور الحديث، فسألته عن مواظبتهم على الذهاب إلى المدرسة في غيابها، فيما هو يجيب على أسئلتها بصدر رحب وواسع، لأنها لم تعتاد أن تمنحه مثل هذا الوقت في الكلام، وكم من مرات حاول أن يسترسل في الحديث معها فتصرخ في وجهه إلى العمل قائلة:

– أقرانك في العمل، وأنت جالس بجانبي تثرثر بكلام فارغ لا فائدة منه.

ولكن اليوم غضت الطرف، وراحت تستمع لحديثه الطفولي البريء الخالي من أي مؤامرة، وحدثته عن ابنها أسامة، هل تم تسجيله في مدرسة النهضة لكرة القدم؟ فهي كانت تعرف أن هذا الإبن افلت من يدها، وكما تقول عادة خرج ليا هاد المسخوط من جنب، وأربك حساباتها، لأنها كانت تتمنى من أعماقها أن يواصل دراسته، ويصبح طبيبا أو أستاذا في المستقبل، ولكن ميله الجلي إلى كرة القدم، فما كان منها إلا أن أمرت أبوه بتسجيله في نادي لكرة القدم، ورغم ذلك فهي لم تقصر في توفير شروط النجاح له من خلال دعمه بساعات إضافية، وتحدثت إلى مدرسيه بأن يساعدوه، ويغضوا الطرف عن شغبه في القسم، بيد انه رغم هذا لم يكره ابنها المدرسة، لأنه كان يظفر بين فصولها بأسباب من التقدير والاحترام، ليس بسبب تفوقه، وإنما لرفعه اسم المدرسة عاليا من خلال المباريات التي لعبها مع المدرسة خلال بطولة المدارس، فكان صانع انتصاراتها، وأحد أعمدة فريقها، فبغيابه يمكن للفريق أن ينهزم، كل الكؤوس التي تمتلئ بهم خزانة المدرسة، كان فيها صاحب الفضل الكبير بأهدافه الحاسمة، ما أن تتجاوز باب الخزانة، حتى تتراءى لك صورته، وهو ممسك بأحد الكؤوس التي أحرزوها خارج

المدينة في إحدى البطولات، لولا رجله الغالية لما كلمه المدرس أو احترمه، فهو كان كسول في الفصل وشجاع في ميدان الكرة، ولهذا ألحت أمه بتسجيله في نادي لكرة القدم، ولكن أمه لم تكون تود تسجيله، ولكنها اقتنعت بنصيحة إحدى صديقتها التي أملت عليها فكرة تسجيل ابنها في النادي، وما سيسفر له مستقبله من نجاح باهر في هذه الرياضة، ربما قد يصبح نجما لكرة القدم في قادم الأعوام، بما توحيه الموهبة التي يملكها، ويمتاز بها عن أقرانه، وينتشل عائلته الصغيرة من الشقاء، وخصوصا عم إبراهيم الذي يتصارع على واجهتين العمل ليل نهار من أجل إطعام أبنائه، وتأدية واجب كراء الشقة والمحلبة وفاتورة الماء والكهرباء ومصاريف أخرى، في انتظار أن يبلغوا الأبناء سن العمل ليساعدوه على محنته.

الفصل السادس

وحده مع الشقاء من أجل سعادة الزوجة والأبناء، افتتح عم إبراهيم محلبته، يهيئ المقاعد، ويشعل موقد الغاز استعدادا لطبخ الشاي ليكون جاهزا لزبائنه المفضلين في هذا الصباح.

سيوح، عمر زروال، يتناولان إفطارهما معا، براد شاي صغير، وخبزة محشوة بفرماج، وقطع من كاشير، هذه وجبة إفطارهم في الصباح، كما تعودوا عليها من قبل ومن بعد، في حين بدأت تتوافد على محلبة عم إبراهيم مجموعة من الزبائن، هذا يريد دانون وآخر عصير، وعم إبراهيم في نشاط منقطع النظير يلبي طلبات الزبائن بلا كلل ولا ملل.

فيما عقارب الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، بدأت المحلبة تخلو من الزبائن قليلا، كل يذهب إلى العمل، المدرسة، كل إلى وجهته، فيما القادم كان سعيد الروندة يقطع الطريق على مهل بخطواته الثقيلة، يرتدي قميجة صفراء كبيرة الحجم، نظرا لبدانته تكفي لثلاثة أشخاص أن يرتدوها إذا ما فصلت لدى خياط ماهر، وكان قلبه يخفق من أن تدهسه سيارة ما أو أن يسقط مغمى عليه جراء الشمس الحارة، ومن غير

المعقول أن سعيد الروندة مرت السنوات الأخيرة من عمره عاطلا، حتى حسب أن البطالة هي عمل طبيعي، يمكن أن يجازى عليه الانسان، هو رجل خامل، اعتاد على الراحة، واتكل على أشقائه أن يطعموه، فلم يندم على حياته يوما ما، ولم يلق باللوم على والديه، لأنهم لم يحسنوا تعليمه، بل يتذكرهم بحزن عميق، ويتلو على روحهم بعض الأدعية، وأحيانا تنتابه نوبة هستيرية من البكاء، وأحيانا متأسفا على هذه الدنيا وما آلت إليه قائلا (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال وإكرام) ومن عادته ما أن يتناهى إلى مسمعه وفاة شخص في زنقة ما، حتى يذهب يواسي عائلته، يمشي في جنازته، وعند العشاء تجده جالسا لا يتزحزح عن مكانه، حتى يشبع بطنه فيخرج متسللا، لا يقيم وزنا للميت ولا لعائلته، وما تلك المواساة التي يدعيها إلا بروتوكولات، حتى يخال للناس انه عنصر فاعل في المجتمع، وما يهمه سوى أن يملأ بطنه لا غير، وقد قطع الطريق متمهلا، ومستسلما لخواطره المضطربة، يتساءل في قرارة نفسه عن أي حظ سيصطدم به اليوم (ماذا يخبئ لي رهان اليوم). ومن كثرة انشغاله اليوم بسباق الخيل ، كان يرد على تحية با عبد الله صاحب سناك، وبائع لبن شعيبة، فكان يعرف أن كلمة سي التي ينادونه بها ما هي

إلا أداة من أدوات المدح لا غير، وكان يسيء الظن بهذه التحايا التي يلقونها عليه، وهكذا وقف يتحدث مع أحد من معارفه القدامى، سأله عن الأحوال والصحة فأجاب متمتما:

– كما ترى.

وتصافحا معا، فودعه سعيد الروندة شاكرا، واقترب من محلبة عم إبراهيم ببضع خطوات، فاجتاز عتبة المحلبة، ما إن رأى عم إبراهيم القادم، فحدجه من تحت نظارتين قديمتين، حتى أفسح له مكانه الذي اعتاد أن يجلس فيه منذ سنين خلت، فسلم سعيد الروندة على الجالسين، فردوا بأحسن منها، وأخرج من جيب سرواله مذياع صغير، ووضعه فوق الطاولة الرخامية، وطلب كأس شاي وقطعة من الحرشة، وراح يتناول فطوره الذي يزيد عنه في قليل من الأحيان سوى دانون.

الكل يعمل إلا هو بلا عمل، ومازال بلا أبناء، والى متى سيظل على هذا المنوال وسنه قد شارف على الخمسين، فهو يعاني آلاما قاسية وحيدا في المنزل، كل أشقائه وأين فرقتهم سبل الحياة، واحد في أمريكا، وآخر في سلك الشرطة، والبنات منها المعلمة وربة بيت، أما هو غارق في هذه

الحياة الكئيبة حتى أذنيه، وما أن انتهى من تناول فطوره، حتى أخرج من جيبه ورقة تخص رهان سباق الخيول، وبدأ يدون تخميناته الخاطئة على مسودة، مرة يحذف رقم، فيتناهى بصره إلى إحدى السيارات، وهي مارة في الشارع فيرى ترقيمها فيدونه، متفائلا بتلك الأرقام، فأفسد عليه خلوة تخميناته ابن عم إبراهيم الأصغر، حين جر من بين يديه ورقة الرهان، فاشتكاه إلى أبيه فردها إليه خوفا من أن يعاقبه أبوه، فاستغل سعيد الروندة وجود الابن، فطلب منه أن يختار له أربعة أرقام، من أصل ستة عشر رقما، مغررا إياه بأن يشتري له سيارة من لعب الأطفال، فيما ابن عم إبراهيم يملي عليه بعض الأرقام، وسعيد الروندة منهمك في تدوينها.

وما إن انتهى من تدوين الأرقام حتى تمتم قائلا:

– الخير فيما اختاره الله.

ودون الأرقام التي استخلصها من عملية الفرز، ودونها حتى لا تضيع من مخيلته، ونظر إلى الساعة الحائطية للمحلبة، وتكلم بصوت خافت قائلا:

– لم يبق على السباق إلا وقت قليل.

ونهض من مكانه آمرا عم إبراهيم، أن يدون ثمن فطوره في دفتر الديون، وخرج ينقل خطواته الثقيلة محاولا الإسراع في اتجاه مقهى (المامونى)، فهي مكان اقتطاع تذاكر المشاركة في رهان سباق الخيول، والتي لن يصل إليها إلا بعد أن تخور قواه، بسبب مشيته الثقيلة التي تبعث الملل في الغادين والرائحين، وعلى رغم انهماكه بأمر الوصول إلى مقهى (المامونى) من أجل المشاركة في الرهان، فهو يتمنى من داخل أعماقه، أن يكون من ذوي حسن الحظ، ويفوز ويظفر بنصيب مالي مهم يغطي به على أزماته، ويؤدي به ما عليه من ديون التي لم يسددها للعم إبراهيم منذ شهور، فتراكمت عليه حتى تفشى أمره لدى صديقه بائع الكتب المستعملة عباس، وبلغ إلى مسمعه أن صديقه سعيد الروندة يحمل على عاتقه ديون كثيرة، ومازال لم يؤدي فاتورة الكهرباء لمدة أربعة أشهر، والضريبة لم يؤدها منذ أعوام، بعد سفر أخوه إلى أمريكا، فراق لحاله عباس، وأقسم بأغلظ الإيمان أن يجد حلا عادلا لصديقه سعيد الروندة، وأن يتوسط له لدى إحدى معارفه، حتى يخفف عنه من فواتير الضريبة والكهرباء وبدا عباس حماسة لينهض بأعباء صديقه، ويخفف عنه هذا الثقل، ولكن سعيد الروندة كان يسيء الظن بمثل هذه المساعدات،

فيظن أن هذه المساعدة التي تقدم له، سيكون من ورائها ربح لصالح مساعديه الشيء الذي جعل أصدقائه ينفرون منه، ويتحاشون حتى لقاء به في الشارع، أو جالسا في محلبة عم إبراهيم. فيما سعيد الروندة وجد في نفور أصدقائه منه راحة له، وهكذا مضى في حياته الفاشلة، التي لم يحقق فيها أي نجاح سيحسب له، ويخرس به ألسنة الأصدقاء والأعداء، وقد حاولوا أصدقائه أن يمدوا له يد المساعدة، نظرا لتلك رابطة التي رابطتهم أيام الصبا والمدرسة فكان يصدهم قائلا:

– الخيرية في حاجة إلى مساعدتكم.

– فلست بحاجة إلى مساعدتكم يا أوغاد.

فقال متحججا:

– مادام خالقنا هو الله فهو رازقنا.

رغم تحججه بهذا الحديث، فهو مؤمن بالله، ويخاف من عذاب النار يؤدي الصلاة إلا في شهر رمضان ثم ينقطع عن تأديتها، ويطمع في دخول الجنة، يصمت إذا كان يتلى القرآن في إحدى المأتم التي كان

يحضرها، ويتخشع مرات تدمع عينه، فنصف أموات المقبرة سار وراء جنائزهم، فشيعهم إلى مثواهم الأخير حتى لقبوه أصدقائه (بكناش الوفيات)، حتى إذا استعصى على أحد منهم تاريخ وفاة شخص، كان محور حديثهم سألوه، فيعطيهم تفاصيل وفاته، حتى نوع الطعام الذي قُدِم للحاضرين في مأتمه، وعدد الأشخاص الذين شيعوه، فهو أحيانا يفتخر ويتعالى، ويسخر من الآخرين، ومن غير شك فالناس في نظره طبقات وأصناف، ربما وضع لهم ترتيب طبقي في مخيلته، وكان من كثرة سوء ظنه انه بدا يشك في نفسه، وتجده مرات يتكلم مع نفسه، أو يؤنبها أو يتحدث مع شخص آخر في مخيلته، حتى ظنوه جُنَّ، هكذا شخصية سعيد الروندة شخصية مضطربة، قد تجده في المحلبة يتحدث وقد التف حوله مجموعة من معارفه القدامى، يتكلم بصوت مرتفع نظرا لسمعه الضعيف، أو تجده منطوي على نفسه معزول في مكانه المعتاد، يستمع لمذياعه الصغير، وقد الصقه بأذنه، أو ماسكا بجريدته المفضلة (المساء) أو غارقا في بحر همومه مخمما، فتارة تنتابه سهوة فيسقط، ولكن عم إبراهيم يتلقفه، فهو عالم بحركاته وسكناته، حتى وقت ذهابه ومجيئه نظرا

للسنوات الطويلة التي قضاها كزبون لهذه محلبة، فعم إبراهيم يعتبره من أقدم الزبائن، حتى شكا إليه سعيد الروندة ذات يوم حاله مازحا:

– يجب أن تحيلني على التقاعد يا عم إبراهيم، أو تقتسم معي ربح اليومي.

فتحدث أحد الجالسين مؤيدا:

– فعلا يا عم فهو زبون قديم ونحن شهود.

وقال آخر:

– فأنا منذ صباي أراه يجلس في هذه المحلبة.

فما كان من عم إبراهيم إلا أن غرِق في الضحك، وخاطب زبونه القديم قائلا:

– ما كاين غا خاطرك أسي سعيد الروندة.

– محلبة راها ديالك.

• • • •

وفي خضم انشغال عم إبراهيم بتلبية طلبات الزبائن، في انتظار أن يحين موعد تناول الغداء، ظهر سعيد الروندة، وهو يجر قدميه الثقيلتين عند مقدم عتبة المحلبة، فدخل وقد انبسطت أساريره لأنه وصل في الوقت المحدد لاقتطاع تذاكر المشاركة في الرهان، فجلس على كرسيه المعتاد، فنظر إلى المكان الذي يقف فيه عم إبراهيم جنب أباريق الشاي، فوجه إليه طلبه قائلا:

– كأس شاي وسيجارتين.

الفصل السابع

في هدوء الصباح الباكر، ومع اقتراب آذان صلاة الفجر، كان الحاج بوشعيب يخرج من منزله في هذا الوقت لتأدية صلاة الفجر، إذا لم ترهقه شدة البرد، فقد آلِف الاستيقاظ باكرا منذ أن كان شابا، كان من عاداته أن يخرج من منزله ويتفقد ساكنة زنقة دغاغية من منزل توفيق شريويطة حتى مقهى طيمس، ومن هناك يبدأ طريقه نحو المسجد، وكان يستبشر كلما تفقد زنقة دغاغية فيجد قهوة طيمس بدأت تفتح أبوابها لزبائن الصباحيين، فهو رجل تقي لا تفوته صلاة الفجر إلا إذا أصيب بوعكة صحية، ومن عادته عندما يفرغ من الصلاة، لا ينسى جولته التفقدية للمدينة رفقة إمام مسجد القايد العربي وبعض من أصدقائه في مثل سنه، ومع ذلك كان يفكر في الحياة، وكان إذا فرغ من جولته الصباحية رفقة إمام المسجد وأصدقائه، يعرج على مخبزة حرمة يتزود بباريزيان والحليب، فيمر على دار توفيق شريويطة فيجد الخالة سعاد مستيقظة وقد باشرت بتنظيف قبالة بيتها، وهي ترش الماء وتسقي إحدى الشجيرات الصغيرات فيدعو لها، وأحيانا يسترسل معها في الحديث إذا ما قد راق له خاطره، وأحيانا يعاتبها على تركها أبنائها نائمين وخاصة

توفيق شريويطة، أما هي فزوجها فقد توفي منذ سنوات، فترك لها خمسة أبناء فتكفلت بتربيتهم، وعنيت بهم حتى كبروا وأصبحوا قادرين على إعالة أنفسهم فتركت لهم زمام الأمر، فما كان منها إلا أن اعتزلت العمل، فيما الحاج بوشعيب لا يدخل إلى منزله حتى يتأكد من أن زنقة دغاغية قد استأنفت نشاطها اليومي، وعمتها الحركة، وافتتح ابنه عبد الرحيم سيكليسي محله، والخضار مسعود جراجه، وميكانيكي الزنقة ورشاتهم، عند ذلك يدخل إلى منزله لتناول فطوره.

تقع زنقة دغاغية وسط المدينة، وبالضبط وراء شارع الحسن الثاني، قبالة مدرسة الفارابي وثانوية الحسن الثاني، فهي زنقة تمتد طولا، وتبتدئ من فوق بدكان بائع الفواكه الجافة، وينتهي حدها بقهوة طيمس، كما انتهى تاريخها القديم الشاهد على سكانها، رغم من أن سكان الأصليين لهذه زنقة، انتقلوا للسكن في أماكن أخرى، نظرا للرطوبة منازلها، وعرضتها لانهيار في أي وقت، لأن بنائها قديم ، ومع أن زنقة دغاغية تكاد تعيش شبه منعزلة عن الأزقة الأخرى والحواري، ورغم ذلك فلها حياتها الخاصة التي تضج بها وتنعم بها، من خلال جوطية التي تقام بجانبها يوم الثلاثاء

وكذلك السوق الأسبوعي الذي ينعقد يوم الاربعاء، فبذلك تتصل أعماقها بجذور الحياة وترفع من اسمها.

في هذا الصباح يكتنف زنقة دغاغية جو رطب، فيما نشاط يدب منذ الصباح الباكر من خلال قهوة طيمس التي يفتتحها السوسي الملقب بالرايس، فيخرج المقاعد والطاولات ويكنس أرضيتها، ثم يتوافد سائقي سيارات الأجرة لتناول فطورهم واحدا تلو الآخر، وقد ركنوا سيارتهم بالقرب من سور ثانوية الحسن الثاني فيما (كورتي) يصيح المحمدية. رباط. بوزنيقة. والشارع قد غاص بالمارة، والتلاميذ قد تجمعوا حول بوابة الثانوية في انتظار وقت الدخول، ثم يتراءى لك الحلاق عزيز قادم فوق دراجته ليفتح دكانه، ثم يسمع هدير قاطعة الخشب وقد استخدمها النجار معلنا عن بدء العمل، والخضار مسعود يعرض بضاعته ويصففها بفرز الجيدة وحدها.

بيد أن عم إبراهيم، قد افتتح محلبته باكرا التي تقع وراء زنقة دغاغية، وقد باشر عمله اليومي المعتاد، وكان سعيد الروندة وصديقه عمر زرول

يتناولان إفطارهما معا، وقد ابتدأ سعيد الروندة الحديث ذلك الصباح مخاطبا صديقه عمر زروال بعد أن فرغ من تناول إفطارهما قائلا:

– ما عندنا زهر عمر زروال.

فتنهد عمر زروال وسأله:

– هل كنت على موعد مع الفوز بالرهان.

فقال سعيد الروندة بصوت مرتفع متحسرا:

– مكان 13 حل العود (الحصان) رقم 5.

ضحك عمر زروال ثم قال بأسف:

– فعلا فأنت سيئ الحظ أم أصابتك عين.

فتمتم سعيد الروندة قائلا:

– عين الحسود فيها عود.

فطلب منه عمر زروال أن يمده بورقة الرهان ليراها، فما كان من سعيد الروندة إلا أن أخرجها من جيبه ومدها إليه.

فحدج عمر زروال الأرقام بعينيه، وتنهد بصوت مسموع وعاد يقول:

يالك من سيئ الحظ رقم واحد يفصلك عن الفوز بالرهان، فلوى سعيد الروندة شفتيه في حنق قائلا:

– النحس.

– إلى متى سيطاردنا.

– كأنه ولِد معنا.

فربت على كتفه عمر زروال ثم قال متفائلا:

– فوز آتٍ لا محالة يا سعيد.

فتكلم ساخرا من نفسه قائلا:

– أمثالي لا يفوزون بالرهان.

كان دائما يحلم ويرغب، ويريد أن يفوز بقدر مالي كبير، حتى يتمكن من تغطية مصاريفه وأداء بعض الديون، وعلى سباق الخيل يعول، وتراءى له الفوز بهذا الرهان هو الوسيلة الوحيدة للخروج من أزماته المالية الخانقة،

ولكن لسوء الحظ لم يفوز، مما حدا به أن أرجع الأمر لسوء حظه وعلى رغم ذلك، فقد فاز في مناسبات قليلة بمبالغ مالية ليست بالمهمة بالنسبة إليه، فهو يريد أن يفوز كما يقول لصديقه عمر زروال.

– شي ربحة صحيحة.

في حين أفسد عليهم استنشاق الهواء النقي في هذا الصباح شاحنة لحمل النفايات، وهي تمر بالقرب منهم، فأخرج سعيد الروندة خرقة وضعها على أنفه حتى لا تزكمه رائحة النفايات فتأفف عمر زروال قائلا:

– رائحة نتنة.

ولكن سعيد الروندة لم يقدر على التكلم، فظل يتمتم بكلام غير مفهوم وهو يقول لعمر زروال:

– رائحة كريهة.

ذهبت الشاحنة، ولكن الرائحة مازالت تحوم في المكان، مما حدا بسعيد أن ألقى باللائمة على عمال النظافة والمسئولين الذين لم يغيروا الشاحنة على حد قوله.

– ثلاثون سنة والشاحنة لم تتغير.

– تغير المسؤولين والشاحنة بقت.

فخفف سعيد الروندة من لهجته وراح يقول:

– هذه مدينتنا يجب أن تكون نظيفة.

فحدثه عمر زرول مازحا:

– يجب أن تترشح فنصوت عليك.

فقطب سعيد الروندة وقال:

– هل تستهزئ بي.

فيما سمع صوت من داخل فعرف فيه أنه صوت عم إبراهيم، فاشرأب سعيد الروندة عنقه في اتجاه الصوت، فما كان من عم إبراهيم إلا أن قال مازحا:

– أنا أضمن لك صوتان سي سعيد الروندة.

فأبدى سعيد الروندة قلقه فهو لا يريد أن يكون مصدر الحديث، مما جعله ينظر في اتجاه عم إبراهيم وهو يقول له:

– أنا لم أطلب منك أن تصوت علي.

– وثانية من قال لك أني سأترشح.

فقال عمر زروال:

– لا تنتقص من نفسك فأنا من سيتكلف بالدعاية.

فقال له إبراهيم ضاحكا:

– وأنا أقدم الشاي والحريرة مجانا لأتباعك فلا تسلني شيء آخر.

فما كان من عمر زروال أن حاول تشجيعه قائلا:

– ماذا تريد آخر.

فتحدث سعيد الروندة بصوت غليظ:

غيروا موضوع كلامكم، فلا تجدون بما تتكلمون غيره سواي، أعفوني من موضوع كلامكم من فضلكم، توجد مواضيع كثيرة فيكفيكم النبش فيها.

فعرف عم إبراهيم من كلام سعيد الروندة أنه جاد وقد يثور في أي لحظة إذا ما حاول أن يجعله مضغة تلوكها الألسن، فما كان منه إلا أن نسيهم واستغرق في عمله.

أما عمر زروال فقد نهض، وأدى ثمن حساب فطوره، وأدى حتى ثمن فطور سعيد الروندة، وخرج فيما ضرب موعد مع سعيد الروندة في المساء، وأخرج سعيد الروندة مذياع من جيبه محاولا تكسير الوقت فلم يجد شيء يستهويه فأخرسه، وجلس يعبث بالمذياع، ويفكر في رهان اليوم، فكسر عنه صمته عند ذاك صوت صاحب سناك با عبد الله وهو يقول:

– صباح الخير أسي سعيد الروندة.

الفصل الثامن

في هذه الأثناء كان كراج عبد الرحيم سيكليسي مثار ضجيج لا ينقطع في زنقة دغاغية طول النهار، زبائن كثيرون لا يكفون عن الصراخ، هذا يريد دراجته أن تصلح هي الأولى، وآخر يريد علبة (سيليسيون)، وسيل عارم من الدراجات صفت خارج الباب، متكئة على الحائط تنتظر أصحابها، أو إصلاحها وسيارات يسمع أزيزها، فيطبق على مدرسة الفارابي وما يليها من ثانوية الحسن الثاني، فيما سيارات وشاحنات تقف في الطوار المحاذي للمدرسة، ووقوفها قد يخلق شيئا من الاضطراب في حركة المرور، وصراخ الأطفال يسمع وهم يتعاركون بالقرب من سور المدرسة، في حين تتحلق بالقرب من المدرسة جماعة من الباعة المتجولين، وهم يعرضون بضائعهم منهم بائع الفول والحمص مسلوق والحلوى، فيما أبناء زنقة وقد اتكئوا على أحد الجدران، في محاولة منهم لاصطياد بعض الفتيات الخارجات من الثانوية، وبعض كلمات سباب وشتم تسمع من مقهى طيمس. لبث عبد الرحيم سيكليسي في دكانه، وهو مكب على إصلاح الدراجات، فدكانه يقع في زنقة دغاغية، وهو في الأربعينات من عمره، متوسط القامة، مخروطي الوجه، ذو أنف

حاد، يرتدي بدلة زرقاء، وهو غارق في عمله، أما دكان عبد الرحيم سيكليسي دكان واسع، ومكان لاجتماع أبناء زنقة الدغاغية للتشاور في مغامرة ما، أو ذهاب إلى البحر، أو إجراء مقابلة لكرة القدم، حتى أصبح ذاك دكان معلمة زنقة دغاغية، وعنوانها وبريدها، أما صاحب دكان فمجاز، وقد امتهن جميع الحرف، وطرق أبواب الحكومة فوجدها موصدة، واشتغل في الإنعاش الوطني حارسا لإحدى الحدائق، وقد ضاق به الأمر في بلده، وسافر إلى تونس وعمل هناك، ولكن ما فتئ أن مر عام على سفره، حتى رجع إلى بلده، فاستقر به المطاف في هذا الدكان، فهو لا يفقه شيئا في مهنته، ولا يحمل منها إلا الإسم، ولكنه رجل طيب القلب دمث الأخلاق، يميل بطبعه إلى التسامح، وحب الناس، وعمل الخير، ومساعدة أبناء الزنقة في حل بعض تمارينهم المدرسية، وكان يحافظ على صلاته نموذج أبيه الحاج بوشعيب، رغم أنه في هذا السن، ما زال لم يتزوج، فهو يبحث عن امرأة تصلح للزواج، وقد وجد له أهله بنت تليق بمكانه، ولكنه رفضها متحججا بأنه على علاقة مع أخرى، فيما شخصيته محبوبة لدى ساكنة زنقة، ومحترما في جميع الأوساط التي تعرفه، وتقدره الأجيال التي عاصرها، لقد عاصر كثيرين، وصادقهم

واستطاع أن يصل حبل صداقته بالأجيال المتعاقبة، فدكانه خير شاهد على ذلك، ما إن تقف بجانب دكانه، حتى يتراءى لك صبيان وصغار يلعبون، ولا يضجر منهم، ولا ينهرهم مثل بقية الدكاكين الأخرى، يرضي جميع الخواطر، حتى من يكنون له العداء، ومما كان يزيد سكان زنقة تعلقا به، هو تدينه ووعيه الثقافي، فهو مجاز في الفقه، وبعض المرات كان يتطوع لإلقاء الدروس في المسجد، وقد ولد ونشأ وترعرع في زنقة دغاغية، كما رأى النور فيها، وكان من أبناء هذه زنقة، من تخرج طبيبا ومهندس وموظف في دواليب الإدارة، غير أنه لم يحالفه الحظ، لذلك ترك أمره لله، دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر الذي ينغص عليه عيشته، فهو يرى موظفين لا يتقنون حتى كتابة أسمائهم وتوظفوا غير أنه يرجع ذلك إلى الرشوة، ويتساءل مرات مع نفسه (ماذا يقع لو وظفت في مكان ما)، ورغم ذلك كان يعلم بأن الأرزاق بيد الله، لذلك ألصق على جدران دكانه قصيدة إحدى الشعراء التي مطلعها.

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا .. يأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري

توفيق شريويطة، كمال، ياسين، بجكة، كلهم أبناء زنقة دغاغية، ورفاق منذ صباهم، لم تفرق بينهم المدرسة ولا العمل، حينما كبروا، ورابط بينهم هو الانتماء إلى زنقة دغاغية، ولا يجدون من الأنشطة ما يرفهون بها عن أنفسهم سوى لعب الكرة، ونظرا لقرب الملعب، يكفيهم أن يتسلقوا سور الثانوية، وكان عبد الرحيم سيكليسي أكثرهم ولعا بالكرة، ومتابعة أخبارها، والمباريات، ومعرفة بأسماء لاعبين والمدربين، ولأن الكرة كانت اللعبة الوحيدة، ومتنفس لهم والتي لا تتطلب تكاليف، فكانوا يلعبون دونما حاجة ماسة إلى تجهيزات رياضية، وكان يحدوهم حماس عارم حينما يشاركون في بطولة رمضان، ورغبة في التحدي، وعدم القبول بالهزيمة إلى درجة أنهم يستميتون في اللعب، ويقاتلون ويبدلون مجهودهم فتقطع أحذيتهم، وتدمى أقدامهم، ولكنهم رغم ذلك يجدونها متعة لا يضاهيها شيء، وأحيانا يمتد بهم اللعب، فيتناسون أنفسهم، وقد يلعبان بلا ضابط إلا إذا كان في انتظارهم فريق آخر، فيضبطان الوقت معا، ومن أبرز نجوم فريقهم، يوجد توفيق شريويطة، وعبد الرحيم سيكليسي، ورغم كبر سنه، فهو ما زال يجاري إيقاع الشباب ذو ثمانية عشر ربيعا، حتى يخيل للمرء، حينما يجري وراء الكرة أنه ما زال صغير

السن، والعيب الوحيد في شخصية عبد الرحيم، هو انفعاله أثناء المباريات، حين يكون فريقه في استقبال أحد الفرق من أحياء المدينة، يبدون رفاقه شراسة في اللعب، ولا يتنازلون عن الانتصار، فكانوا يلعبون من أجل قطع نقدية، لا يريد واحد منهم أن تذهب قطعته النقدية، أو تضيع منه، فهم يريدون الانتصار بشتى الطرق، بالضغط على الفريق الآخر، أحيانا بالكلام القبيح، والعنف، فجل المباريات التي لعبوها في ميدانهم، كان الانتصار حليفهم، ونادرا ما كانوا يخفقون في بعض المباريات، حينما يصطدمون بخصم عنيد أكثر منهم شراسة، ما أن يعلن الحكم عن نهاية إحدى مبارياتهم، فيكونان فيها الطرف الخاسر، حتى يبدآن بسبه وشتمه بألفاظ قدحية، وأحيانا يختلقون الأعذار حتى تعاد المباراة من جديد، ويستبدل الحكم بأحد المتفرجين، وإذا ما رفض الفريق الآخر مطلبهم في إعادة المباراة، أرجعوا ملعب الكرة إلى حلبة للعراك، فينضم للمعركة رفاقهم من أبناء زنقة، من خلال ترامي نبأ إليهم، وثانية لقرب الملعب من زنقة، ولم يمتد الأمر بهم إلى الاعتداء على لاعبي الفريق الآخر، بل إلى سرقة أحذيتهم، وهواتفهم النقالة، فتكون مثل هذه الألبسة، والهواتف هي غنيمتهم من هذه المعركة، التي تكون

سببها هي كرة القدم، وقليلا ما أوصلتهم مثل هذه الأفعال، إلى حد استدعائهم من طرف الشرطة، جراء تبليغ بهم من طرف المتضرر، والمتعرض للإعتداء، ولكن تدخل بعض أصحاب النوايا الحسنة يتم عقد جلسة صلح في كراج عبد الرحيم سيكليسي، فيتم إعادة المياه إلى مجاريها، ويتم إرجاء مثل هذه المسائل إلى كرة القدم، فيعتبرونها فتنة، ويبررون بها شغبهم، ويتم في هذه الجلسة لعن الشيطان، ورغم ذلك فأبناء زنقة دغاغية، لا يحملون في قلوبهم حقد، أو ظلم، أو يكنون كره لأحد، فهم متآخين فيما بعضهم البعض، ويمدون يد المساعدة لبعضهم البعض، ويرجع الفضل كله لعبد الرحيم سيكليسي، الذي لم شملهم منذ صباهم، ومن خلال تجمعهم لديه في الكراج، خلال أوقات العمل، أو خارج أوقات العمل، في الأعياد والمناسبات، فكان يحلو لأبناء زنقة دغاغية أن يجلسوا في دكانه، ولا يطيب لهم مجلس إلا في دكانه، فيتبادلون الحديث عن أخبار زنقة وأحداث اليوم، إلقاء القبض على فلان. فلان هاجر. فلان تزوج. فلان خرج من السجن اليوم. إلى ذلك من الأخبار العادية، التي تدور في جميع الأزقة والدروب، بينما تدور كؤوس الشاي في جو اجتماعي، فيكون الحيز الأكبر من الحديث يدور

حول الشاب توفيق شريويطة، فهو ابن هذه زنقة، وطاهي شاي الكراج، وأسوأ ما في توفيق شريويطة، هو إدمانه على شم (السيليسيون)، ويمتلك موهبة العزف على الناي (قصبة) بطريقته الخاصة، ولذلك كانوا أبناء زنقة يلتفون حوله لسماع عزفه الذي يفتت الصخر، ومن عاداته إذا حل الليل يتناول عشاءه، ويحمل مزماره في يديه متجها صوب الغابة، هناك يعزف سيمفونياته، ومع ذلك فلم يكن مسكونا بجني، كما يروج البعض إلى غير ذلك من الإشاعات التي تروج عنه، والغريب في الأمر أنك ترى مجموعة من الشباب يسألون عنه، فكانوا يؤتونه جماعات، فيضرب لكل واحد منهم موعد في الغابة، فيلقنهم دروسه في العزف على القصبة (الناي) مجانا، وأحيانا يكون المقابل علبة من سيليسيون من نوع الرفيع، حتى اقترن اسمه بالقصبة (الناي)، ولا يسألك المرء عن اسمه، حتى يقول لك دار توفيق شريويطة (مول قصبة)، وعرف في القرى المجاورة للمدينة، ولا يخلو عرس من أعراس القرى، إلا ويتم استدعاؤه، فيتم استقباله بحفاوة، وامتدت شهرته، وانتشرت في جميع أزقة المدينة، حتى تجاوزت المدن الأخرى القريبة، ولكن رغم مهارته في العزف على شتى الايقاعات، فهو لن يكون في حجم عازفي ساحة جامع الفنا، ومن عادته حضور لأمسيات

وليالي (مجاذيب) ليلة شعبانة، فيشترك معهم في العزف على القصبة، ومن الأشياء التي لا تغتفر له، فبعدما تخرج على يديه الكثير من التلاميذ، خرجوا للعمل، وزاحموا مجموعة طبالة والغياطة في الأعراس، والأفراح، فكانوا يقدمون خدماتهم بأجر أقل منهم، فما كان منهم، أن رفعوا شكاية إلى سيادة الباشا ضد أستاذهم توفيق شريويطة، الذي استدعاه فظنه لأول وهلة أنه يملك ترخيص لتلقين هذا الفن، ولكن بعض الوشاة حكوا له الأمر، فعرف فيه أنه عازف هاوي، يحاول نشر هذا الفن بأي طريقة، فما كان منه إلا أن وبخه وهدده بالسجن إذا ما تكرر الأمر، ومنذ ذلك الوقت أعلن توفيق شريويطة اعتزاله تعليم هذا الفن، وظل حبيس البيت والزنقة، والعزف ليلا قبالة بيته، وأحيانا في كراج عبد الرحيم، هكذا اعتزل توفيق شريويطة تعليم هذا الفن، وقطع صلته بأتباعه وتلاميذه، واستعاد شهرته عبر بوابة كرة القدم، بيد أنه شاب محبوب، ويقولون عنه أنه من سلالات الأشراف، كما يلقب بتوفيق شريويطة الشرقاوي، فأبناء زنقة دغاغية، يتفاءلون برؤية وجهه، ويستبشرون بوجوده بينهم خيرا.

ورغم الصفات التي يتحلى بها عبد الرحيم سيكليسي، لم تشفع له للنجاة من ألسن بعض النقاد في زنقة دغاغية، الذين يناصبون له العداء، ويكنون له الحقد، لا لأنه أحسن منهم حالا، وسعيد في حياته لا غير، ورغم ذلك فهو لا يهتم بمثل هذه الأمور، والمؤامرات التي تحاك ضده، والاشاعات التي تروج عنه لتنال من سمعته كرجل محبوب في زنقة دغاغية، وهذه الإشاعات بالنسبة إليه، كما يقول ليست بالخطر الذي سينغص عليه صفو الحياة، فالعمل يأخذ منه حيزا كبيرا، وأحيانا يمتد به العمل ليلا، والحق يقال أنه ليس لديه ما يشغله في هذا الليل، والزوجة التي يمكن أن يقضي في حضنها بعض الوقت لا يملكها، ولا توجد في نظره كما يقول عادة.

– لم يعد الزواج كما كان في الماضي.

– زواج قوالب.

وكان والده الحاج بوشعيب، قد عزم على تزويجه من بنت خاله، ولكنه قد صمم على أن يبقى عازبا طول حياته على أن يتزوج بواحدة تملي عليه الطلبات على حد قوله، وأبى أن يصغي إلى رأي والده الحاج بوشعيب

فتركه لشأنه، وواصل عبد الرحيم حياته هكذا. الكراج، المنزل، وممارسة لعبته المفضلة كرة القدم، وكما واصل حياته هكذا، واصل عمله بما عرف عنه من نزاهة في إصلاح دراجات، حتى انتصف النهار، أغلق دكانه الذي يتواجد تحت منزلهم، بعدما أن أدخل الدارجات بمساعدة أصدقائه من أبناء زنقة دغاغية، وغسل يديه بالصابون، ومحا عنهم آثار (الشحوم)، وصلى صلاة الظهر في دكانه، ودعا الله أن يأتيه برزق موفور، وأن يمنحه الصحة، وأن يمد له في عمره، ودعا من أعماق قلبه أن يحفظه الله من أعين حساده وأعدائه، وأغلق دكانه صاعدا إلى البيت لتناول الغداء والخلود للراحة حتى العصر.

الفصل التاسع

فتح ياسين ابن عم إبراهيم الباب، فتراءى شبح الخالة سعاد واقفا، فنادى الطفل أمه:

– خالتي سعاد ماما.

فردت عليه قائلة:

– قل لها أن تدخل.

فدلها الطفل إلى حجرة الضيوف، ثم اتجه نحو المطبخ داعيا أمه، وانصرف ليلعب مع أخيه في فناء البيت، كانت غرفة الضيوف مستطيلة الشكل ضيقة في العرض، تتكون الغرفة من سدادر خشبية ملفعة بغطاء أزرق، ومائدة كبيرة عليها ورود بلاستيكية، وفي ركن الغرفة تلفاز، وقد وضع فوق قاعدة خشبية، وأرضية الغرفة قد فرشت بزربية حمراء مزركشة، وجلست الخالة سعاد تبحلق في سقف الغرفة، شابكه يداها في انتظار زوجة عم إبراهيم، فلم يطل انتظارها، حتى دخلت زوجة عم ابراهيم وهي ترحب بصديقتها الخالة سعاد قائلة:

– نهار كبير هذا.

– تزورينا النهار لي بغيتي.

فدارت الخالة سعاد حرجها قائلة:

– مع الوقت.

فسلمت عليها، وطال عناقهم، وتبادل القبل فيما بينهم، فيما ياسين ينظر إليهم وأخيه الصغير ممسك بتلابيب أمه، وجلست المرأتين جنبا لجنب، بينما السعدية زوجة عم إبراهيم طلبت من ابنها أن يأتيها بربطة نعناع، ولا ينسى أن يمر عند أبيه يحضر بعض طلبات البيت.

فتحت السعدية النافذة المطلة على الحديقة ليدخل الهواء، فاعتذرت لها عن تأخرها في المطبخ معللة ذلك:

– كتراث شقا ومن صباح وأن أغسل وأصبن.

فتمتمت الخالة سعاد قائلة:

– الله يكون في عونك ابنيتي.

– شقى كايبغي العوين.

فاسترسلت المرأتان في الحديث، وجعلت الخالة سعاد تعدد نواقص زوجة ابنها ميلود، وفشلها الذريع في إفساد علاقته بها وأشقائه، وتحريضها لابنها بأن يخرج ويكتري غرفة، وأن يبتعد عني، وكيف أغرقته بالأبناء، فأصبحت تنجب كقنية[1]، وقالت أن ذلك يعود لحنكتها ومعرفتها بخبايا النساء، وكيف أفشلت مخططات زوجة ابنها، ولكنها قالت بأن واحد من أبنائها من يشغل بالها هو توفيق شريويطة، وتطلب من الله أن يعفو عنه من البلية وتزوجه، وراحت تروي لزوجة عم إبراهيم وقائع زنقة دغاغية والأزقة الأخرى، وطافت بها إلى غلاء الخضر، وفيما زوجة عم إبراهيم تصغي إليها باهتمام، دخل ابنها الصغير وهو يحمل طلبات البيت في كيس بلاستيكي، واستأذنت منها أن تذهب للمطبخ لتعد شاي، قاطعتها الخالة سعاد رافضة أن تشرب الشاي قائلة:

– ماعنديش الوقت.

فأقسمت زوجة عم إبراهيم أن تطبخ الشاي قائلة:

[1] - قنية بالدراجة المغربية هي أنثى الأرنب

– زارتنا بركة.

– جيتي لعندنا وما تشربيش اتاي.

فصمتت الخالة سعاد، وأذعنت لإرادة زوجة عم إبراهيم التي أقسمت بأن تشرب شاي لديها.

كانت زوجة عم إبراهيم مكتنزة الجسم في الأربعينات من عمرها، ولكنها قوية ونشطة في القيام بأعمال تجسس وتلقف أخبار زنقة دغاغية، فهي التي تعتمد عليها صديقتها في القيام بأعمال الشعوذة، وتعرف أماكن وجود كل مشعوذ، فهي صاحبة كل شيء في البيت، هي الآمِر والناهي، حتى عم إبراهيم يرضخ لسطوتها ولا يتجادل معها في أي شيء، كانت إذا صاحت في البيت اهتز منبت شعر زوجها، واختفوا الأبناء في ركن من مخيزن صغير معد لوضع الأشياء الغير مرغوب فيها في البيت، وإذا سمعها الناس تتكلم، قالوا هذه زوجة عاقلة ونعم الزوجة، وحسدوا الزوج الذي تزوجها، ولو رأوها ماذا تعمل لهذا الزوج في البيت لرجموها ورموها بأقبح النعوت، وفي خضم انشغال الخالة سعاد بمشاهدة التلفاز، دخلت زوجة عم إبراهيم حاملة صينية، تحوي براد شاي وكؤوس معدة للشرب

الشاي، وخبز مكسر إلى أرباع وطاسة من زبدة وزيت زيتون، فوضعت المائدة ثم قالت:

– المنزل منزلكِ خالتي سعاد.

فردت الخالة سعاد قائلة:

– الله يعمر لك دار.

وأمسكت زوجة عم إبراهيم بالبراد تدرج الشاي، فأفرغت الشاي في كؤوس، فمدت للخالة سعاد كأس، ونادت على أبنائها ياسين وسمير، وعدلت ربع لكل واحد منهم محشو بزبدة وكأس شاي لكل واحد منهم، وأمرتهم بالجلوس وحذرتهم من أن يندلق الشاي على ملابسهم ثم قالت بامتعاض:

– عييت خالتي سعاد.

– أليس التصبين عمل متعب؟

– دراري كل مرة يوسخو حوايجهم.

فرق قلب الخالة سعاد لحالها فقالت:

– رغم ذلك فهم أبنائك.

– الله يكون في عونك. دراري هما هادوك.

فتمنت قائلة:

– لو كانت عندي بنت تخفف عني متاعب المنزل.

فابتسمت قائلة:

– كل شيء عند الله قريب.

فدهشت زوجة عم إبراهيم لابتسامة الخالة سعاد، التي ما إن دخلت البيت والابتسامة لا تفارق محياها، فأحست بأن شيء ما أدخل عليها السرور والفرحة، ولماذا خالتي سعاد تبتسم؟ وكانت تفطن لمثل هذه الابتسامات، وبأن وراءها شيء فلتصبر حتى تفرج عن سبب مجيئها، فساورها الشك، وذهبت إلى أبعد الحدود، وتسألت هل توفي شخص ما في زنقة، ولم تعرف وتطلب ذلك جمع نصيب من المال من سكان زنقة،

كل على قدر استطاعته، وجاءت لتطلب منها نصيبها، ولكن سرعان ما طردت ذلك التساؤل من مخيلتها فصممت أن تجر لسانها فقالت:

– إلى متى سنفرح بابنة أختك فتيحة.

– ربي يطول لنا في العمر لنحضر عرسها.

وقعت تلك الكلمات في أذن الخالة سعاد كالماء البارد، وتساءلت في نفسها هل عرفت صكعة الخبار؟ ومن مدها بالخبر؟

وقالت الخالة سعاد وهي ترشف كأس شاي:

– قريب أن نحتفل بها.

ولذلك جئت لأخبرك، بأنها خطبت لشاب مغربي مهاجر، يعمل في الديار الأوروبية.

فخفق قلب زوجة عم إبراهيم وتنهدت قائلة:

– الله يكمل.

ودارت تظاهرها بإطلاق زغرودة.

كانت ابنة أخت الخالة سعاد، شابة في العشرينات من عمرها، متوسطة القامة وليست بالجميلة، وقد خطبها الخطاب من قبل، ولكنها كانت ترفضهم وتعرفت على شاب يعمل في الديار الأوروبية، وأصبحت ترتاد معه المطاعم الفاخرة والأماكن المحرمة، وأسقطته بحبائلها، وأصبح أسير هواها لا يرى في الدنيا فتاة أجمل منها، فما كان منه إلا أن تقدم لخطبتها، كانت إذا تحدثت ارتجت لها حيطان زنقة دغاغية ذات صوت قوي، وفم نتن يخرج منه إلا الكلام الساقط والبذيء، فطردت من المدرسة لسوء أخلاقها، وقبعت في البيت حتى سجلت نفسها في مدرسة خصوصية للحلاقة، واستمرت حتى حصلت على دبلوم في الحلاقة، فاشتغلت مساعدة كوافورة في الحي المحمدي، فتعرفت على بنات السوء، ونهلت منهم المعارف والعلوم في قلة الحياء، حتى لقبت بالباطرونا، فأصبحت على يدها تمر صفقات الاتجار في الجنس اللطيف، تتوسط لشخصيات نافذة، وتبحث لهم عن فتيات صغيرات في السن لقضاء سهرات ممتعة، حتى ذاع صيتها، واشتهر اسمها (فتيحة الباطرونا) فأصبح يقصدها طالبي المتعة لتتوسط لهم، وتطرح عليه نوع الفتاة، ومقدار الذي سيدفعه والقادر عليه، فهي فهرس الباغيات

وعنوانهم، ولذلك ما إن تيأس فتاة في البحث عن عمل حتى تقصدها، وكم من فتاة ألحقتها بوظيفة في البلدية، هذه سكرتيرة وأخرى موظفة. كلمتها مسموعة ولا يرد لها طلبها، فيكفي أن تقول من طرف فنيحة، حتى يلبى طلبك، وتلقى استقبالا مصطنعا، ولن تنتظر حتى تنهك قدمك من الوقوف والانتظار بل ستكون معزز مكرم، ومع ذلك ستلقى ترحيب كامل، ولن يخيب طلبك، وكان لها الفضل في تشغيل بعض الشبان في عدة وظائف، وبلغ الأمر أن لعبت دور كبير في الانتخابات لصالح أحد المرشحين.

وفيما أبناء زوجة عم إبراهيم يلهوان بفناء البيت، فزعوا لزغرودتها ودخلوا الغرفة مهرولين فصاحت فيهم ما بكم.

وقالت لها الخالة سعاد:

– قررنا في الصيف أن يكون الحفل وأنتِ من المدعوات، وهذا ما جئت أخبرك به.

ولم تستطيع الخالة سعاد أن تخفي فرحتها بخطبة ابنة أختها من شاب يعمل في الديار الأوروبية، ولم تستطيع أن تكتم سر خطبتها، وقد خرجت

لتذيع السر في زنقة دغاغية وها زوجة عم إبراهيم عرفت سبب ابتسامتها ونشاطها في هذا اليوم.

فهزت زوجة عم إبراهيم رأسها وقالت:

– فتيحة تستحق كل شيء.

فابتسمت الخالة سعاد وقالت:

– فهي أصبحت ابنتي بعد وفاة أمها، وتعهدت بتزويجها وها أنا أوفي بالوعد الذي قطعته على نفسي.

فقالت السعدية بيقين:

– فأنتِ أمها الآن وأنتِ مسئولة عنها.

فألقت الخالة سعاد كلامها بارتياح وقالت:

– بنتي فتيحة وأنا ربيتها، وما نفرطش فيها حتى لشي واحد آخر، حتى تزوج بشي واحد مزيان وها الله سهل عليها بولد الناس.

فالخالة سعاد لم تكن بعلم ابنة أختها بعلاقتها المشبوهة، فهي تسمع من جارتها، ولم تكن تثق بهن، فهي بما تعلم أن ابنة اختها تساعد جميع من يقصدها ولا تخيب ظن قاصدها.

وقفت الخالة سعاد إيذانا بالذهاب، وودعت صديقتها، ولم تنسى أن تقول لها نحن في انتظار زيارتكِ، ففتحت لها الباب، ونزلت الخالة سعاد درجات البيت، وعادت السعدية إلى مجلسها تبتلع الخبر ولم تصدق ما قالته لها وقالت:

– يا للعجب كيف لأمثالها أن يتزوجوا!

ثم قالت:

– عفريتة هاد فتيحة.

الفصل العاشر

خرج التلاميذ من باب مدرسة الفارابي، كتيار زاخر متدفق، يسدون الطريق بزحمتهم، ثم يأخذون في التفرق كل واحد منهم يأخذ وجهته حيث يقطن، منهم إلى حي الفرح، وبعضهم إلى حي الحسني، أو شارع الحسن الثاني وآخرون إلى حي الاداري، على حين تتحلق جماعة منهم حول با عمر بائع البلول والفول والحمص مسلوق، وأخرى قرب دكان بائع الفواكه الجافة الصحراوي، يتسابقون لشراء صور أبطال أحد المسلسلات التركية، غير أن الطريق في لحظة خروجهم لا تخلو من تصفية حسابات مع بعضهم البعض، التي يضطرون كتمانها داخل القسم، حتى الخروج خوفا من عقاب المدرس، رغم ذلك كانت هذه المعارك يفضها بعض المارين، فيكون جزاء كل واحد من المتعاركين لطمة على خد كل واحد منهم، ولكن عصابة من التلاميذ تقف على بضعة أمتار من باب المدرسة، تترصد التلاميذ فيفتشون جيوبهم، فإذا ما وجدوا نقود آو حلوى أو شيء آخر أخذوه، وإذا لم يجدوا شيئا في جيب أحدهم، يرهنوا عندهم كتاب أو دفتر، حتى يؤدي لهم الإتاوة، أو يعاقبونه، ولكن صاحب الحظ من التلاميذ يرمون محفظته بعيدا عنه، فيتابعها بعينيه حتى

لحظة سقوطها، فيجري باتجاهها فيخطفها ويفر من بين أيدي مفتشيه، وويل له أن يتجرأ واحد من التلاميذ، أن يشتم فرد من أفراد العصابة ويفر فالعقاب الذي سينزلونه به أشد، فقد يطاردون صاحب الشتيمة إلى باب منزله، ويربضون له قبالة البيت حتى يخرج، ولكن إذا أردت أن تحصل على عفوهم فما عليك إلا أن ترشي زعيم العصابة، فتصبح معفي من عملية التفتيش وقد يتعدى الأمر إلى حمايتك وحراستك.

خرج أبناء عم إبراهيم من المدرسة ياسين وأسامة في اتجاه البيت القريب من المدرسة، فكانت فرحتهم لا توصف حين سماعهم جرس المدرسة يدق، فاستنشقوا نسيم الحرية بعد تجاوزهم بوابة المدرسة، حتى تراكضوا متلاغطين باتجاه أقرانهم ناسين نصائح عم إبراهيم لهم (المدرسة البيت)، ثم واصلوا لغطهم وصراخهم وتغنيهم بفريقهم المفضل.

– ديما رجاء. رجاء. رجاء.

ونسوا أنفسهم أنهم كانوا سجينين نهار كامل، وراحوا يتابعون لعبهم بالبلي ناسين أنهم كانوا محرومين من الحركة واللعب، كانوا عرضة في أي لحظة لعقاب المدرس الذي لا يرحم ولا يتسامح على أصغر الهفوات، رغم

ذلك فإنهم لا يكرهون المدرسة بقدر ما يكرهون المدرس، وخاصة في شهر رمضان فإن عقاب أيام رمضان، يزداد أضعاف الأيام العادية، وكثيرا ما كان يتغيب بعض التلاميذ بدعوى المرض. آو وفاة أحد الأقرباء، وفي خضم لعبهم الطفولي، مرت بالقرب منهم عربة الكارو، فجروا ورائها متراكضين، فوثب كل واحد منهم خلفها، ولم يتركهم سائق العربة في لعبهم طويلا، حتى لوح عليهم بسوط يضرب به على ظهر البغل، حتى أصابت أصابع ياسين ابن عم إبراهيم، فصرخ بصوت عالٍ، فيما أقرانه ينفجرون بالضحك عليه بما فيهم أخوه أسامة، فيما كان واحد منهم أن تسلل إلى محلبة عم إبراهيم وأنبأه بما أصاب ابنه، فترك عم إبراهيم صديقه سعيد الروندة في المحلبة، وجرى وراء حامل الخبر، حتى وصل إلى المكان الذي أصيب فيه ابنه، فوجدا ابنه ممدا، فتفحصه بعينين غائرتين، وقبل وصوله، وجد جوقة التفت حول ابنه، فلم يطلب منهم لا الانصراف ولا البقاء نظرا لشهرته، فأفسحوا له الطريق، ففتش عن ابنه الآخر أسامة فقيل له انه ذهب إلى المنزل متأبطا محفظة أخيه، فحمل ابنه بين ذراعيه متوجها صوب محلبته، فعرف ما وقع له عن طريق لسان أحد الشهود، الذي أخبره بأن ابنه وجماعة من أقرانه تسلقوا إحدى

عربات الكارو فأصابه ما أصاب، فما كان من عم إبراهيم إلا أن وبخ ابنه بقرصه على بطنه والابن يستغيث، فخلصه سعيد الروندة من يد أبيه، ففر في اتجاه البيت فيما نظرات عم إبراهيم لم تحد عنه حتى دخل البيت وتوارى عن أنظاره.

الفصل الحادي عشر

لا يمر يوم دون أن يشهد الشارع مرور جنازة فيقف رواد المقاهي ومستعملي الطريق وزبائن محلبة عم إبراهيم، فتتوقف الحركة احتراما للجنازة، سواء كانت امرأة، أو رجل والمشيعون يوحدون الله.

– لا إله إلا الله محمد رسول الله.

يسيرون وراء الجنازة في جموع باكية، هكذا سارت الجنازة في شارع الحسن الثاني، وقد خرج سعيد الروندة من مجلسه سائلا جنس المتوفى وأين يقطن، حتى يتسنى له أن يربض بعد صلاة العشاء في القيطون المضروب لتناول العشاء، وقد وقف عم إبراهيم والفقيه التامي احتراما للجنازة، حتى توارت عن ناظريهم ورجعوا إلى أماكنهم، فخاطب الفقيه التامي عم إبراهيم بآيات من القرآن عن الموت والبعث والنشور، فيبث في نفسه الضعيفة الخوف متمتما بآية من القرآن الكريم (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال وإكرام)، ارتعش عم إبراهيم بعد سماعه هذه الآية الكريمة، وفتك ببنيته الهشة جراء تلفظه بهذه الآية، ودار عم إبراهيم دهشته قائلا:

– كل منا ينتظر دوره.

عم إبراهيم فهو شخص محب للحياة، ويعمل للموت ألف حساب، ويتمنى أن يتوفى وفاة مستورة، ويتذكرها بشدة، حين تمر بعض الجنازات، ويتيه في متاهات لا حصر لها، ثم ينعى على الموت لأنه يخطف منا الأحباب والأقارب ويؤلمه أن الموت لا يمهل الإنسان، حتى يصفي حساباته مع الآخرين، ويتسامح مع أعدائه، ويؤدي ما عليه من ديون فيستقبلها راضي ومطمئن، لأن القليل من أقرضهم عم إبراهيم توفوا قبل أن يؤدوا ما بذمتهم، فيحس بأن الموت خطف منه رزقه، ولكنه يعود مستغفرا الله على هذه الوساوس، ويطلب الرحمة، ويتنازل لعائلة المتوفى عن ما بذمتها، لأنه يعلم أن الله يكافئ على أعمال الخير، ويجازي صاحبها بالجنة، لذلك يحرص على عمل الخير.

رجع سعيد الروندة إلى مكانه، بعد أن تعرف على المتوفى، ومكان سكناه، فأكفهر وجهه وذكر محسورا أن الموت لن يفر منها لا الفقير ولا الغني، فالكل سواسية أمام الموت، فوجه اللوم إلى نفسه محاسبا إياها، فماذا عمل في حياته؟ عمر طويل كله مر في النوم واللهو، وماذا يخبئ له

المستقبل؟ وهل اقترب الأجل؟ اشتد قنوطه، وسرعان ما نسى كل شيء، وعاد إلى حياته ضاحكا مستبشرا فقال مواسيا نفسه:

– ليست لدي ثروة سأعاقب عليها.

ولكن عم إبراهيم قطع عليه تفكيره قائلا:

– هل تركت مالا أو عقارا نترحم به عليك إذا مِت.

فقال الشاعر نجيب الراوي مدافعا عنه:

– أعماله هي التي ستترحم عليه.

وتحدث الفقيه التامي مدليا بحديث نبوي:

– عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

واستقر هذا الحديث في نفس عم إبراهيم، وقد رسخه في ذهنه متذكرا بأن الإنسان لا بد أن يعمل، وأن يكون مستعدا لملاقاة ربه بالعمل الصالح وتحدث قائلا:

– أي عمل سيلاقي به سعيد الروندة ربه.

فانبرى الفقيه التامي مدافعا عنه:

– عمل بسيط قد ينجيه.

فقال عم إبراهيم:

– نعم قد علمت بما قلته، ولكن سعيد الروندة لم يعمل، ولم يدخر حتى ثمن الكفن والقبر.

فتكلم نجيب الراوي:

– المحسنين موجودين فهم على أتم الاستعداد.

وضحك عم إبراهيم وخاطب سعيد الروندة قائلا:

– أنا سأتكلف بكل شيء عن جنازتك.

فتكلم سعيد الروندة بلغة الأمر، أعفونا من هذا الموضوع، ماذا دعاكم لتتكلموا عن الموت، وأنتم لا تعملان لها حساب، بل تكدسون الأموال وتتذرعون بحجة ضمان مستقبل الأبناء أي مستقبل أي مال، وماذا ينفع المال وقت الاحتضار بل يذهب كل شيء، تمتعوا ولا تنسوا نصيبكم من الدنيا.

فتحدث عم إبراهيم بلهجة قاطعة:

– هذا قولك يا سعيد الروندة، لأنك لم تدخر شيء، وليست لك ذرية هو ما جعلك أن تتكلم هكذا.

فقال سعيد الروندة في غيظ:

– ليس لدي ما أفعل بهم، وسينغصون علي حياتي، ويكدرون صفوها بصراخهم وطلباتهم.

فتحداه عم إبراهيم قائلا:

– أنت لست قادر على الانجاب، والمسؤولية صعبة عليك، فلاح في وجه سعيد الروندة القنوط قائلا:

– إلزم كلامك ولا تتكلم فيما لا يعنيك، ها أنت تملكهم فماذا استفدت منهم، حتى أعمال السخرة لا يقومون بها.

فرد عليه عم إبراهيم متهكما:

– الأهم في الحياة هم الأبناء، وأحمد الله عليهم لأنهم نعمة وفضل من الله.

فتحدث سعيد الروندة قائلا:

– لو أردت إنجابهم لأنجبتهم قبلك.

إعفونا من هذه المناقشات المتوترة هكذا قال الفقيه التامي، ولكن سعيد الروندة قاطعه قائلا:

– فعلا أيها الفقيه لن نجني من هذه المناقشات إلا وجع الدماغ، فخفف عم إبراهيم من لهجته وراح يقول:

كلام أدى بنا إلى كلام آخر، وأنا ما أريد الإساءة إلى صديقنا سعيد الروندة، وزبون محلبتنا القديم.

فقال سعيد الروندة بهدوء:

– لا تكثر من المدح يا ثعلب، فأنا منذ القدم وأنا أجلس في هذه المحلبة قبل أن تكتريها من صاحبها.

قبل أن يتم سعيد الروندة كلامه دخل محلبة عم إبراهيم متسول، وهو يمسك بيده كيس يحوي خرقا بالية، فمد يده طلبا للمساعدة.

فأخرج أحد الزبناء من جيبه درهما، فمدها إليه وهو يدعو له، ورفع سعيد الروندة عينيه قائلا:

– صِحتك تضاهي جسم بغل فلماذا تتسول.

فقال المتسول:

– لم أفلح في أي عمل زاولته حتى التسول لم أوفق فيه، وها أنت تحاول طردي من أجل درهم لا تغني ولا تسمن من جوع، فقال سعيد الروندة بحقد:

– فرص العمل موجودة، ولكنكم تحبون التسول ومد اليد.

فقال المتسول بصوت منكسر:

– الله يسترنا.

فراح سعيد الروندة يتفحصه بعين ثاقبة فقال بجد:

– أنت صحتك جيدة، وليس فيك عيب وما عليك إلا بالبحث عن عمل.

فأجابه بصوت حزين:

– سئمت البحث.

فنبهه سعيد الروندة قائلا:

– أنت لم تبحث لو بحث عن عمل لوجدت من يشغلك.

فدعاه عم إبراهيم للجلوس، وخصه بجبانية الحريرة وكسرة خبز، فنصحه الفقيه التامي بالعمل في ورشة البناء، فهم في حاجة ماسة إلى العمال.

أما سعيد الروندة لم يحول عينيه عن المتسول.

فأكل وشرب وحمد الله شاكرا، ودعا مع عم إبراهيم بالصحة والعافية والرزق الموفور، وخرج لا يلوى على شيء، وسابا في مخيلته سعيد الروندة ولاعنا.

فابتدأ سعيد الروندة الكلام معلقا:

– جيل خامل معكاز لا يقدر على العمل.

عم إبراهيم مدافعا عن المتسول:

– لديه ظروف قاهرة.

فقال سعيد الورندة ساخرا:

– أي ظروف وجسمه يضاهي جسم بغل.

فقال الفقيه التامي وهو يدعك عينيه:

التسول عادة سيئة وقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانطلق صوت المؤذن الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر إيذانا بصلاة العصر، فانتبه

الفقيه التامي إلى صوت المؤذن، واستغفر الله، ونهض واقفا مسويا جلبابه، وغادر المحلبة مودعا الجالسين ملبيا نداء الصلاة.

• • • •

اقترب الليل، ومازال سناك باعبد الله غاص بالزبائن، فهو يقع على يمين محلبة عم إبراهيم، وصاحبه السوسي الذي يديره، يجلس على مقعد خشبي مرتفع مراقبا الخارجين والداخلين، حتى لا يفر أي زبون، وكم من مرة فعلوها به بعض المتشردين فيطلبون طلبياتهم، حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة للفرار فروا وتركوه يندب حظه، مما حدا به أن يختار مجلسه بالقرب من الباب، وهو مكان يستطيع أن يراقب منه كل شيء، حتى المشواة التي تحوي الدجاج، حتى لا يسرقه المتشردون، في هذا الوقت الذي يجمعهم الليل أينما كانوا ومرات سرقوه في غفلة منه أو لانشغاله بخدمة زبون، فهو يفتتح مطعمه من السابعة صباحا حتى منتصف الليل، وزبناء سناك من المدينة والبوادي النهاريون والليليون والسكارى والمتشردون وعابرو السبيل من جميع الأعمار والأجناس، ولكن صاحبه مشتهر بالبخل وكنز المال، هذا ما يعيب عليه الناس وسكان المدينة

وزبائن مطعمه، ولأنه من مكومي الثروة على حد تعبيرهم، وكان الرجل من المستثمرين الناجحين، فهو يملك مقاهي، ودور وأراضي شاسعة، وخص أولاده بتسيير بعض مشاريعه، وترك ابنه الأصغر حماد ليدربه، ويلقنه مبادئ التجارة، لذلك شغله معه في سناك، حتى يتعرف على الأثمنة ويعرف كيف يوجه المطعم ويسيره وينهض بأعبائه، حتى إذا ما لمس فيه حماس واستعدادا للعمل تركه له، وذهب ليفتتح مشروعا آخر وهذا ما يفكر فيه، وما يدور بخلده فالغريزة الكامنة فيه لجمع المال هي التي تجعله يستثمر ليجني أرباح استثمارته، وغالبا ما يغامر في استثمارته، ويخاف من شبح الإفلاس، وشحيح إلى درجة انه يبخل على نفسه، ويمقت المتسولين لدرجة انه يسبهم إذا استجداه أحد منهم، فالزكاة التي من نصيب الفقراء لا يخرجها، لأن غريزة دس الأموال في البنك تنفر نفورا طبيعيا من استخراجها وإعطاءها لأصحابها الذين يستحقونها من الفقراء والمساكين، حتى إذا ما تحدث معه شخص في هذا الأمر، استاء فرد عليه (اقسم رزقي مع الكسالى والمتسولين، هل مالي أنفقه على الشحاذين الذي أفنيت في جمعه حياتي) حتى أصدقائه لم يعودوا يخوضون معه الحديث في موضوع الزكاة ليس درئا لغضبه، بل طمعا في

ماله، فتحولوا من معارضيه إلى مؤيديه في هذا الأمر، حتى ينالوا عطفه ويشغل أحد أبنائهم عنده، وهو رغم ذلك من الهموم التي تشغل باله ليست بالعقبة التي ستقف في طريقه من أجل تكويم الثروة، فهو لا شيء يشغله سوى العمل، وفي خضم انشغاله شعر با عبد الله بدخول سكير وهو في حالة من الثمالة إلى سناك، فرمقه بنظرة سريعة ثم سأله ماذا تريد فأجابه الرجل:

– بغيت ناكل شلح (امازيغي).

فرد عليه:

– أدي ثمن الأكل أولا.

فأجابه سكير شاتما:

– ليس معي نقود يا كربوز.

فصاح باعبد الله بغضب:

– نقود الخمر تملكها والأكل لا.

– اذهب لحال سبيلك وإلا ناديت الشرطة.

سكير متحديا باعبد الله في غيض:

– عيط عليهم يا ولد ق.ح..بة.

با عبد الله ما كان منه إلا أن تلفن لرجال الشرطة، وفيما سكير يسبه ويشتمه بألفاظ بذيئة، وبعض الزبائن يطلبون من سكير الانصراف لحال سبيله، حتى لا تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، با عبد الله مخاطبا سكير:

– ألا تريد أن تنام في منزلكم هذه ليلة، إختار النوم في المنزل أم في مخفر الشرطة.

سكير مقطبا:

– الله يعطينا معاكم عشرين عام تاع الحبس.

ولكن باعبد الله، استغرق في عمله بحيث لم يبال لسكير بوجود، وتركه في هذيانه.

وفي تلك اللحظة وقع شيء لم يكن في حسبان با عبد الله، وكان وقوعه غير مفاجئ بالنسبة لزبائن سناك، فقد دوى بغتة صوت تحطيم زجاج مشواة الدجاج في عنف وشدة، وتلاه صوت ارتطام شيء صلب بالجدار المقابل لمشواة الدجاج، فيما سكير لادا بالفرار، فما كان من با عبد الله أن ترك سناك بعدما أن أوصى ابنه حماد، ثم أسرع في مطاردة الفاعل فلم يلحق به، ورجع خائبا، ولكنه كان قد رسم ملامحه ولباسه في مخيلته.

ترك ابنه حماد في سناك مكلفا بكل شيء، فأنحشر في سيارته وأدار مفتاح مقود السيارة، وانطلق بها دون إبطاء، والتف على يساره قاصدا مركز الشرطة مدليا بشكاية ضد سكير مجهول، فأعطاهم وصفه طويل القامة، يرتدي قبعة، ولباس رياضي، نحيل الجسم. الخ.

الضابط الذي حرر أقواله قائلا:

– سير كون هاني.

وبعد أن أدلى بشكايته ضد سكير مجهول الاسم، رجع إلى سناك سابا في مخيلته الشرطة. والسكارى.

وحدث نفسه:

– كون عطيتو ياكل حسن ليا من هاد المشاكيل.

زجاج مشواة الدجاج ثمنها باهظ، فيجب عليه أن يعمل دون انقطاع، حتى يوفر ثمنها، وكذلك مصاريف الكراء، وأجر مساعديه، والدجاج، البطاطس. الخ.

لقد اعتراه الندم في نفسه، ولكنه متمنيا في نفسه أن يلقي القبض عليه بيديه وينتزع منه ثمن الزجاج، فيما مساعده منهمك بجمع شظايا الزجاج ورميه في بالوعة الأزبال، وكنس المكان ومسح آثار الزجاج.

فيما با عبد الله متمتما ليلة سوداء، وهو يتلوا آيات من القرآن، في هذا الليل يمتلئ بالمتشردين وقطاع الطرق والسكارى والمعربدين والنشالين يسرقون ما أمكن، ويكسرون حاويات الأزبال، ويقذفون بكلمات نابية، وقطط تسترخي وتتحدث بلغتها في هذا الليل، وتتواصل مع بعضها البعض بموائها، بينما مجموعة من المتشردين يجلسان فوق طوار يتحدثان، ويقتسمان غنيمة فيما بينهم عبارة عن هاتف نقال، بعض دراهم، وسلسلة ذهبية، يدخنون ويقهقهون بأعلى صوت غير عابئين

بالساكنة، واخرج واحد منهم زجاجة نبيذ من تحت جاكتاته، وراح يفض سداداتها، واخرج كأس بلاستيكي من جيبه، وراح يفرغ لنفسه وأصدقائه، حتى أفرغوا محتواها، ورمى بها واحد منهم صوب إحدى المنازل، حتى سمع صوت زجاج يتناثر، واطل أحد سكان من النافذة شاتما الجميع وصارخا:

– أليست لديكم مساكين يا أولاد زنا.

ومقطبا في غيض وحنق:

– ولاد زنا هم من يأتون بهذه أفعال.

فلم يلقوا إليه بالا، ولم يحسوا له بوجود، فأغلق النافذة متذمرا وساخطا.

• • • •

زنقة دغاغية خالية من المارة، وتوفيق شريويطة جالس كالقرفصاء، سيجارة رخيصة في يده اليمنى، ويد أخرى تحمل مفعول سحري (ميكة) محشوة بقطرات من سيليسيون يعتبرها تذكرة سفر عبر عالم من عوالمه الخاصة، وهربا من مشاكل عائلية، وبجانبه صديقه كريم تائه في ظلمات (دوليو)،

بيد أن صاحب محل الفواكه الجافة الصحراوي ما زال فاتحا دكانه الملاصق لمنزل توفيق شريويطة، وصوت موسيقى ناس الغيوان يكسر صمت الليل، هكذا جلس مع صديقه كريم، كل واحد غارق في إدمانه لا يسمع إلا صوت خشخشة كيس بلاستيكي حين ينفخه توفيق شريويطة، وسعال صديقه كريم، وساد الظلام زنقة دغاغية إلا من عمود كهربائي ينير بإضاءته الخافتة، بعدما أن خلد سكان زنقة إلى النوم، وسيطر شعار الصمت على زنقة الدغاغية، وتوفيق شريويطة جالس في هدوء تام، وصديقه كريم إلى جانبه يسهران حتى الصباح، وارتفع عند داك صوت من داخل منزل توفيق شريويطة، كان صوت أمه (سعاد) خاطبته قائلا برقة:

– أدخل لتناول عشاءك.

أفاق توفيق شريويطة على صوتها، وقد لف ميكة وحشرها في جيبه، ودفع باب المسكن، دخل ورده ورائه، وجد نفسه في المطبخ، كان منزل توفيق شريويطة يقع في اول صف من زنقة دغاغية، يتكون من غرفتين صغيرتين، وفناء صغير لا يكاد يتسع لدرجته الهوائية التي غالبا ما يقفلها خارج

البيت، وقد جعلت الخالة سعاد من فناء البيت مطبخا لتتسع الغرفتين للضيوف وزائريها من جاراتها من سيدات الزنقة. التهم توفيق شريويطة وجبته البئيسة مكونة من كسرة خبز، وقليل من العدس البائت بنهم، وكأس شاي تركه ليدخن به سيجارة، وفيما هو يمضغ سمع نداء من الخارج، وكان صديقه كريم يناديه بأن يخرج ليكملا سهراتهما المعتادة، لأن بقاءه داخل المنزل، أثار شكوك كريم الذي ظنه دخل لينام، وكم من مرة فعلها به، دخل ولم يخرج، ويتركه لوحده يواجه برد زنقة لوحده، فما كان من توفيق شريويطة أن رد عليه بفم ممتلئ:

– إنتظر مالك مسرع.

– ما زال الوقت.

فيما كريم يخاطبه مازحا:

– اخرج يا شريويطة.

فأجابه توفيق من الداخل بغضب:

– انتظر أو اذهب لحال سبيلك.

وانقضت دقيقة من الصمت، وتوفيق شريويطة قد تناول طعامه، وراح يغسل يديه، ووضع إبريق الشاي فوق موقد الغاز لتسخينه، فيما أمه تمنعه من الخروج، وهو يطلب منها أن تخلد للنوم، وتتركه وشأنه فلماذا تتعب نفسها معه، في أثناء ذلك دار كريم، ودار رأسه جراء السائل العجيب (دوليو) وارتطم بعربة الدفع التي يتكئ عليها، وسمع توفيق شريويطة من داخل صوت ارتطامه، فخرج مهرولا، وقد وجد صديقه كريم سقط مغشيا عليه.

فطلب من أمه أن تمده بكوب من الماء، وراح يتمتم صديقه بكلام غير مفهوم، وتوفيق شريويطة قد أمسكه من رأسه، وانفتح الباب فأطلت أمه، فتناول منها كوب ماء، وسكبه على رأس صديقه الذي أفاق مذعورا، وقد سرت به انتعاشة، واستيقظ من غفوته:

فقال توفيق شريويطة ضاحكا:

– لقد أفزعتنا.

– أظنك أكثرت من شم دوليو.

– شممنا أكثر منك ولم يقع لنا مثل هذا الدوار(الدوخة).

فقال كريم بسرور:

– أنت أكثر خبرة مني يا توفيق شريويطة.

فقال توفيق شريويطة باحتقار:

– أنت مازلت في بدايتك الأولى.

فقال كريم بصوت خافت:

– الله يعفو علينا.

فتنهد توفيق شريويطة قائلا:

– آمين.

آمين مالكم كنتم تحصدان الفول طيلة النهار، صوت حميد خشلاعة بلومبي (رصاصي) خارج من منزله، فهو شاب في مثل سن توفيق شريويطة، ومن أبناء زنقة دغاغية، ومن حراس مرمى فريقها، وقد جلس فوق حجر صخري إلى جانب توفيق شريويطة وكريم، ونظر يمينا ويسارا

خوفا من وجود أحد المخبرين، واخرج من جوربه (سبسي) طويل، وبدا في تدخين شقوفة (مخدر الكيف)، بينما توفيق شريويطة وكريم صامتان جراء تخدير الجهنمي لم يحدثاه.

دخن على مهل، وذهب لحال سبيله وهو لا يلوى على شيء، وقد ظنوه أنه لم يجلس، ولم يسمعوا صوته من قبل، وحسبوه طيف، وغاصوا في عالمهم من خلال ذلك السائل العجيب.

الفصل الثاني عشر

أذن الضحى بازدحام السوق بالمتسوقين ولغطهم، امتدت مساحة شاسعة من القياطين ذات اللون الأبيض الداكن، تصطف في خطوط متعرجة، وسقف مجزرة السوق يتراءى بنائها من شارع الحسن الثاني، تحسس عم إبراهيم جيبه متأكدا من وجود النقود في جيبه، وهو يهم بجذب مقود دراجته فاسحا الطريق لبعض الدواب الخارجة من باب السوق، فكان المتسوقون القرويون ينتقلون على ظهور الدواب وعربات الكارو، فيما عم إبراهيم انحشر وسط أكوام من المتسوقين، وهو يقبض على مقود دراجته، حتى لا تضيع منه في وسط هذا الزحام، والتف على جانب قياطين تجار نعال البلاستيكية، والأواني المنزلية، واقترب نحو خيام تجار المواد الغذائية، حتى اقترب من رحبة الزرع (الحبوب)، حيث توجد قياطين الحجامة (حلاقين)، هناك يركن دراجته لدى صديقه الحجام معيزو (حلاق) في انتظار أن يتبضع حاجياته الكاملة من السوق، وفي طريقه نحو رحبة الخضراوات اصطدم بأحد المتسولين وهو يتوسل إليه:

– صدقة على الله.

فمنحه عم إبراهيم درهم، فيما الآخر ينهال عليه بالدعوات.

– سير عمرك ما تخيب.

– الله يبعد عنك أولاد الحرام.

فيما راح يقطع الطريق التي أتى منها، وعرج على بائع لوز والكركاع، وذاب في جو السوق، مبتدئا جولته من رحبة الغنم حتى يتعرف على أسعارها، وكان يجد لذته في البحث وتقصي أثمنة كل شيء ليضفي عليها بعض من تعليقاته في محلبته، كان يجد لذته هناك يسأل هذا ، ثم لا يلبث أن يتركه إلى غيره لأنه لا يجد ما يرضي رغبته، لا يقتني حاجة من حوائجه حتى يطوف السوق كله، يسأل عن ثمنها، فإذا وجدها رخيصة لدى أحدهم اقتناها وهو راضي عن شطارته. فيما أجراس نحاسية لسقاء تدق، ومتسوقون يقبلون على شرب الماء، لأن الحرارة لا تطاق في السوق، وزائد على ذلك تدافع المتسوقين فيما بينهم، مما يولد زمت واختناق فيعرق المتسوقون نساء ورجالا وأطفال، فيضطرون للبحث عن سقاة الماء الذين يتعرفون عليهم بقبعاتهم العريضة المزركشة بقطع

نحاسية، وحول أكتافهم تتدلى قربة مصنوعة من جلود الماعز مليئة بالماء مشبعة برائحة القطران ومناداة كراب (بائع الماء).

– شي كأس تاع الماء.

فيتعالى صياح باعات الخضر والأواني المنزلية، وصوت بوق يعلن عن إحدى العروض تقدمه شركة القهوة، وبوق آخر مثبت فوق إحدى السيارات يعلن عن مسحوق لقتل الفئران والبرغوث والقمل، وتداخل صوت البوق بدعاية أحد المشعوذين، وهو يعرض طريقته في علاج الأمراض المستعصية التي لم يقدر على علاجها الطب الحديث، فالتفت حوله حلقة من الناس تصدق ما يقوله، وتقتني خليطه العجيب بنهم، فيما هو يقسم بأن الكثير من الناس كانوا مصابين بمرض كدا وكدا شفيت نتيجة اقتناءها هذا الخليط واستعماله. فيما نهيق الحمير آتٍ من مربط الحمير تعلن تمردها على قانون ربطها في هذا المكان. وسيارات الأجرة تزعق بأبواقها نتيجة امتلاء طريق بالمارين، والدواب التي تسير وسط الطريق، وشاحنات لنقل الأغنام وهي تخرج من رحبة الأغنام متجهين تجارها نحو القياطين التي تقدم الكباب والشواء وأباريق الشاي، فيما

القياطين الأخرى تقدم كؤوس الشاي والاسفنج والحوت المقلي لزبائنها العاديين، وبجانب سور السوق تعرض القرويات الدجاج البلدي والبيض البلدي في سلال صغيرة، وصراخ دافعي عربات اليد يتعالى من وراء المتسوقين.

– حيد اشريف. حيد اشريف.

– حيد.رد بالك.

وقد ارتفع صياح حارس السيارات، مناديا مساعده بأن ينتبه إلى إحدى السيارات، حاول سائقها أن يتسلل دون أن يؤدي أجرة الحراسة، وكانت جوانب السوق تعج بالحركة والضوضاء، وصخب أبواق السيارات، والشاحنات، ونهيق الحمير، ولغط التجار يعلو، ويختلط كل واحد منهم محاولا أن يثبت أن بضاعته هي الجيدة، ورجال القوات المساعدة بمداومتهم التجوال بين المتسوقين في محاولة منهم لفرض الأمن في السوق، حتى لا يتعرض المتسوقون للسرقة على أيادي اللصوص، الذين يجدون في السوق فرصة لهم لا تعوض، نظرا لاحتكاك والتدافع في السوق، فينتهزون الفرصة، فيكفيهم أن يرسلوا أنامل أيديهم بخفة في

جيب ضحية التي يختارونها بدقة، وحين يتم متابعته في السوق ومراقبته، وهو يخرج من جيبه بعض الأوراق المالية لشراء بعض الأغراض، فلا يحيدان عنه عين فإذا تلفت تلفتوا معه، حتى تسنح لهم الفرصة المناسبة، فلا يترددون ولو ثانية، فيتم إفراغ جيوبه مما يحتويه في خفة لا يشعر بها الضحية، وويل إذا حاول بعض المتسوقين تنبيه الضحية مما سيتعرض له من خطر اللصوص، فإنه سيصبح عرضة لانتقامهم، وسيكون في عداد المغضوب عليهم، إذا حاول إفشال مخطط سرقاتهم، فيعتبر السوق عندهم المكان الأنسب للإسترزاق، نظرا لخليط من المتسوقين، فيما الغالبية الكبرى التي تتعرض للسرقة من طرف اللصوص والنشالين هم من النساء والبدويين ومن ينجون من سرقاتهم هم بعض المستعجلين والمحظوظين الذين يقتنون أغراضهم من السوق باكرا، وينفلتون كل إلى وجهته ناجين من أحابيل اللصوص.

وضج السوق بالمتسوقين، وتدافعت الأقدام، وصوت كورتي وهو ينادي بصوت مرتفع، مرشدا الركاب إلى سيارات الأجرة، رجالا ونساء يقتربون منه محملين بمقتنياتهم، يسألونه عن مكان وجود السيارات التي ستقلهم إلى دواويرهم، وفيما هو يشير بكلتا يديه، ويحث الناس على الإسراع

وإخلاء الطريق، وشرطي المرور يزعق بصفارته، وهو ينظم حركة مرور السيارات والراجلين والدواب، وخصره ممنطق بمحفظة جلدية زرقاء تحوي بداخلها تقارير ومخالفات التي أرتكبت، ويمسح بيده العرق المتصبب على جبينه، ويخبط بيده الأخرى على مؤخرات السيارات ليتحرك سائقوها، وفسح الطريق للمارة، وكلمات السب والشتم التي تخرج من فم بائع الملابس الجاهزة الذي تعرض للسرقة من طرف مجهولين، وهو ينعتهم بأوصاف مشينة وجاره البائع يهدئ من غليانه.

وبعيدا عن السوق بخطوات قليلة، تجمع جمع من الناس في حلقة دائرية حول فرقة عيساوة، التي يتباهى أحد أفرادها بقدرته على تناول الزجاج، دون أن يحس بألم ويدمى فاه، وآخر يسكب في جوفه إبريق من الماء الساخن دون أن تصدر منه آهة، وآخر يمسك بخنجر يغرسه في صدغه، وتبقى الأعين متسمرة ومشدوهة لهول المنظر، فيما بعض النساء اللواتي يتابعن هذا المشهد يسقطن مغشيا عليهن، فيما إنهمك أصغرهم في تسخين بنادر على نار المجمر، ورئيس الفرقة، وقد عصب رأسه بعمامة خضراء يخط على الأرض بعصاه خط دائري وقد رسم حدود الحلقة، حتى لا يتجاوز الأطفال الصغار حدود الخط، ويطلب من الجميع أن

يرفعوا أيديهم بالدعاء وطلب تسليم، وينطلق داعيا وأصوات المتحلقين بالحلقة تردد دعواته بصوت مرتفع، وتردد قائلة (آمين) وفي الختام يطوف ببنديره، وهو يردد بعض الدعوات، يقف عند كل واحد أو واحدة من المتحلقين بحلقة مادا بنديره، حتى يرمي كل واحد منهم بما جاد خاطره في البندير، فيما هو يدعو والأصوات ترد عليه (آمين) ولا ينتهي من طوافه إلا إذا جمع مالا كثيرا، فيقتسم أفراد الفرقة المحصول اليومي بعد نهاية الحلقة، وقد ضربوا موعدًا مع المتجمهرين في الأسبوع المقبل، فيما المتسوقين من البدو بدءوا يخلون السوق تباعا ويأخذون أماكنهم في سيارات النقل الكبيرة (صطافيط) لتعود بهم إلى قراهم، بعدما أن استغلوا هذه المناسبة لزيارة ذويهم وعائلتهم في المدينة، فبدى السوق عاديا كما الأسابيع التي سبقته، ولم يمض وقت طويل على دخول عم إبراهيم إلى السوق، حتى اقتنى بعض حاجياته من القطاني وربيع والكرافس، المواد الأساسية لإعداد الحريرة أكلة الفقراء الرخيصة، التي يقبلون عليها بنهم، ومرات ترى طابور من الواقفين ينتظرون دورهم للحصول على الحريرة، وعم إبراهيم يهدئ زبائنه (الكل سيأكل)، فزبائن

هذه المحلبة يفضلونها على أخريات لرخص مأكولتها وثمنها في متناولهم وبساطة صاحبها.

ترك عم إبراهيم مقتنياته لدى صديقه الحلاق، حتى لا تعيق المقتنيات حركة تسوقه، وانصرف متوجها نحو خيام الخضراوات، وراح يتجول بين بائعي الخضر، يسأل بكم ثمن البطاطس والطماطم، ولا يقتني أي شيء من نوع هذه الخضر، حتى يجد البضاعة الجيدة والتي تناسب قدرته الشرائية، وقف أمام بائع الطماطم سائلا إياه بكم:

- سبعة دراهم.

- بزاف.

- نقص شوية خلينا ناخذو وبزاف.

- خد آو لا سير.

- سلعة عندي الفلوس عندك.

- بزاف هاد شي غالي.

– مدونة اشريف هي لي دارت هاد الغلى.

بالحق ما خلاو لدرويش فين يعيش، هكذا تمتم عم إبراهيم، وتزحزح من أمام الخضار في اتجاه آخر، ثم لا يلبث أن يتركه إلى غيره حتى يجد ضالته عند خضار آخر، وكان لا يلبث واقفا عند الخضار، حتى يستنفذ جميع الأسئلة ومحاولا أن يكسب عطف الخضار لينتقص له من ثمن البضاعة، وتتكرر شطارته هكذا كل أسبوع مع الخضارة، دون أن يجد في ذلك حرجا، دائما يفاوض بائعي الخضار حول ثمن الخضروات ومحاولا أن يخفضوا له في الثمن، معللا بأنه يريد كمية كبيرة لكن في الأخير، يكتفي عم إبراهيم بتبضع بضعة كيلوغرامات من طماطم وبصل وبطاطس، وقد وضع مقتنياته في كيس كبير، بعد أن ربطه في المقعد الخلفي للدراجة مغادرا السوق وداعيا من أعماق قلبه (الله يدير شي تياويل ديال الخير) ومتمنيا أن ينظر الخالق في حال المساكين، ومنذرا بأن هذا الغلاء لا يبشر بخير، وإنما بأزمة حقيقية وتمتم ساخطا:

– ما خلاو للدرويش باش يعيش.

الفصل الثالث عشر

استيقظ سكان شارع الحسن الثاني وزنقة دغاغية في الهزيع الأخير من الليل على صوات بنات شامة الذين ارتفع نواحهم وبكائهم في هذا الوقت المتأخر من الليل، فصفقت النوافذ، واطلت الرؤوس تستبق الخبر اليقين، وخرجت نساء زنقة دغاغية، وشارع الحسن الثاني مذعورات، وخرج الرجال مهرولين نحو منزل شامة، وخرج الحارس ليلي من مخبئه متجها صوب مصدر الصوات، فتدافعت الأقدام ترقى درجات البيت، وباب الغرفة مشرع، وخليط من الأصوات يعلو، ولا تسمع سوى صوت النحيب والبكاء، والنادبة تلطم خدها، وتمزق ثوبها، وتنكش شعرها، فهرع النساء والرجال صوب غرفة شامة فوجدوها قد أسلمت الروح لباريها، وكان صوت ابنتها فاطمة يهتف (أمي. أمي.)، وكانت بنتها الأخرى سارة تندب، وتسترسل في البكاء، وتخبط بيديها على فخذيها، في حين تسمرت العيون عند فراش شامة، تعاين الجسد الذي سار فوق الأرض مائة واثنان سنوات، كانت شامة أكبر معمرة في شارع الحسن الثاني، وقد كانت شاهدة على تاريخ المدينة، وتعتبر أرشيف المدينة بكل ما تعني الكلمة نظرا لقيمتها وسمعتها لدى السلطات، وكانت تلقب

(بالعريفة) فهي التي تقوم بتجنيد النساء خلال الأعياد الوطنية، وتستنهض الهمم، وكانت من النساء القلائل التي قاومت الاستعمار الفرنسي، وقد تعرضت للسجن عدة مرات بسبب مواقفها الوطنية، وكانت مثال المواطنة المغربية التي يحتذى بها، ورفضت كل الاغراءات من طرف المستعمر الفرنسي لتعمل لصالحه، وبقت متشبثة بوطنيتها حتى آخر رمق من حياتها، ولم تترك رصيد بنكي أو ما شابه ذلك لبناتها كالأخرين من الخونة الذين يملكون الهكتارات وأرصدة سمينة في البنك، فكانت امرأة وطنية تبذل الغالي والنفيس من أجل وطنها الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار، فكان بيتها مخبأ للمقاومين الفارين من أعين الوشاة والمخبرين التي لا تنام، أما اليوم فهو معرض للبيع من طرف الورثة، وسيتحول في قادم الأيام إلى عمارة، كما ستتحول جثتها إلى تراب، بالأمس كانت تدب على الأرض وألقت نظرة على شارع الحسن الثاني والدنيا كعادتها في الأيام السابقة، وروي شهود بأنهم قد عاينوها أمس صحيحة معافاة، فهي كانت تتمتع بصحة عالية، تخرج لوحدها دون أي مساعدة من بناتها، تزور المقبرة كل جمعة مشيا على الأقدام ودون حاجة

إلى عربة كوتشي أن تقلها، ولا تستعين بأحد عند قضاء حوائجها، اللهم إلا نادرا إذا أصبتها وعكة صحية.

وترامى الخبر الأسود إلى أقرباء بعيدين عن مسكنها، فجاءوا مهرولين، وتلفنت فاطمة إلى أعمامها تبلغهم الخبر الحزين، وأصبح البيت بعد دقائق كمزار يتراءى لك الداخلون والخارجون، وأبواب البيوت مشرعة، فيما النساء يندبن ويولولن، وتحول هدوء الليل وسكونه إلى صراخ وعويل، وصرخت فاطمة من الأعماق (أمي. أمي.)، وضج البيت بالضجيج والصوات والبكاء، وامتلأت الغرفة بالقريبات، وتعذر على بعض من رجال من التحقوا متأخرين صعود إلى البيت وبقوا جالسين تحت البيت على الكراسي التي صفها صاحب المقهى، وخاضوا في الحديث، وتم نبش في سيرة المتوفية وذكروا إيجابياتها وغضوا الطرف عن سلبياتها عملا بالمثل القائل (اذكروا أمواتكم بخير).

ودارت كؤوس الشاي، وصوت القرآن منبعث من جهاز كاسيت، أطبق على المكان شيء من الخشوع والرهبة والخوف في انتظار أن يلوح الفجر، وغشى المكان شيء من الصمت والوجوم، فراحوا يحلقون في

بعضهم البعض، فتنحنح علال الزكروم أحد فاعلي الخير ممن تجدهم في مثل هذه الأوقات قائلا:

– لا حول ولا قوة إلا بالله أمس وقد حادثتها كانت صحيحة.

فتمتم عم إبراهيم قائلا:

– الموت لا يستثني أحد.

وسرعان ما أجهش أحد أقاربها بالبكاء، ورد علال الزكروم قائلا:

– لي عطى الله عطاه.

– البكاء وراء الميت خسارة.

فتحول علال الزكروم من مكانه، وتلفن لأحد أصدقائه بأن يحضر القيطون ولوازمه، ودله على المكان، فقال مخاطبا جمع من الرجال:

– القيطون بعد ساعة سيؤتى به من مقر البلدية.

فقال أحد الأقرباء بحزن:

– أنا سأتكلف بمصاريف المأتم.

فقال عم إبراهيم:

– اليوم الأول تتكلف به الجماعة، واليوم الثاني يمكن لك أن تتكلف.

فقال علال الزكروم بتوكيد:

– ما قاله عم إبراهيم هو الذي سيكون.

وهنا قال أحد الحاضرين:

– هذا هو المعمول به.

فقال علال الزكروم:

– يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامها وعرفانا لها بما قدمت لوطنها من خدمات وردا لصنيعها.

فخرج صاحب مقهى السعادة عن صمته قائلا:

– المقهى رهن إشارتكم بكراسيها ولوازمها ومعداتها.

• • • •

وبعد الظهر تم تشييع جنازة أقدم معمرة في الشارع إلى مثواها الأخير، وسار ورائها سكان شارع الحسن الثاني وزنقة دغاغية رجال وصبيان ما عدا النساء، وكان عم إبراهيم وصديقه سعيد الروندة من المشيعين، يمشيان مطأطئ الرأس لا يتكلمان تاركين الكلام حتى عودتهم إلى مجالسهم وارتفع صوت المشيعين.

– لا إله الا الله. محمد رسول الله.

كلما اخترق مسير الجنازة دربا إلا وسار ورائها طالبي الحسنات، وإن لم تصلهم بالمتوفية رابطة القرابة والدم في مقبرة سيدي محمد بن سليمان، كان أقرباء شامة يتلقون التعازي.

– عظم الله أجركم.

– ألهمكم الصبر والسلوان.

وتم مراسم الدفن كما هو معروف، وانفض المشيعون كل إلى وجهته، وعاد عم إبراهيم وصديقه سعيد الروندة إلى المحلبة، وانحنى سعيد الروندة يهمس في أذن عم إبراهيم قائلا:

– ها هي قريبة لك قاصدا بذلك الموت.

وعادوا راجعين، وبدا سعيد الروندة منشرح الصدر فرحا لأن وليمة في المساء في انتظاره، ورد عليه عم إبراهيم قائلا:

– كل واحد منا ينتظر دوره.

الفصل الرابع عشر

اتجهت زوجة عم إبراهيم تخبط في طريقها في اتجاه المقبرة، حيث يتواجد مقام الوالي الصالح سيدي محمد بن سليمان، ولم تنتبه في طريقها أنها ليست الوحيدة المتجهة صوب المقبرة، بل أفواجا تسير في الطريق صوب المقبرة، الحق أنها لم تنتبه لهذه الأفواج، بل أعماها مرض ابنها المفاجئ، والذي حرم عليها النوم، وأصبحت في هم مقيم لا تفكر إلا في شفاء ابنها الصغير، فجربت تمائم العرافين وطب المشعوذين فلم يفلح في مداواة ابنها، وأوصتها صديقتها بأن تزور ضريح سيدي محمد بن سليمان ببركاته يشفى كل مريض، ويتزوجنا العانسات، وقد زاروه بعدما أن كانوا مريضات وتم شفاءهم ببركاته، وكانت زوجة عم إبراهيم تعمل بنصائحهم، رغم ذلك فهي تؤمن بمثل هذه الخرافات، وتقيم لها وزنا، تقبل على مثل هذه الأوهام بصدر رحب، تنثر الدراهم بين يدي المشعوذين، وبنفحها تحس براحة نفسية، ومحاولة منها لإرضاء نفسها المتلهفة والمريضة، فهي لم تترك بيت عراف لم تزوره، وتعرف عناوين جميع المشعوذين، وصانعي التمائم اكثر من مقدم الحكومة، وتثق في قدرتهم ولا تكل من زيارتهم، فإذا ما تناهى إلى مسمعها عراف جديد حل

إلى المدينة إلا وسارعت إلى زيارته لتكتشف قدرته، وكيف أمكن لها أن تستولي على زوجها عم إبراهيم الذي لا يقدر أن يناقشها أو يحتج على كثرة خروجها من البيت، فهي كما يقولون أنها وضعت له بعض المستحضرات في الأكل حتى لا يتفوه بكلمة لا، لذلك تراه أخرس يلبي طلباتها، ويقوم بأي شيء أمرته به فهو صابر والله لا يضيع أجر الصابرين، فهو صبر معها على هذه العيشة، وترك الأمر إلى الله فهو الذي يجازي على كل فعل، وأفعالها تقوم بها عن إيمانها بمفعولها الذي سرى في زوجها عم إبراهيم ليس ابتغاء في إيذائه وإنما حبا في امتلاكه، وأن يصبح تحت إمرتها تحركه كيفما يحلو لها، لذلك تراها منقبة عن أوكار العرافين والدجالين، ومسارعة إلى صنع تمائم، ولكنها اليوم مشغولة بمرض ابنها الصغير، الذي لم تنفع معه لا تمائم ولا بخور الفقهاء، ورجائها الوحيد هو زيارة ضريح سيدي محمد بن سليمان، الذي بدأت تقترب نحوه، وقد حثت خطاها، حينما لاح لها عن بعد مئذنة المسجد التي تتوسط المقبرة، فأسرعت في خطواتها، حتى اقتربت من السور الخارجي للمقبرة، ودلفت من الباب الكبير المقوس، ولما وطئت قدمها ارض المقبرة، حتى هزها منظر صمت القبور هزا فتمتمت:

– السلام عليكم أيها الأموات.

– أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

فقرأت الفاتحة ترحما على الأموات، واتجهت صوب الضريح الوالي الصالح، فتراءى لها تيار زاخر من الزائرين والزائرات لضريح سيدي محمد بن سليمان، زاحفين ببطء، وحاملين في أيديهم قراطيس شموع وحفنة من الدراهم لتوزيعها على المتسولين المنتشرين حول مقبرة سيدي محمد بن سليمان، وطالما تلهفت زوجة عم إبراهيم أشواقها لزيارة هذا الضريح، كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا، ها هي تنحشر وسط تيار من الزائرين والزائرات، حتى وجدت منفذا تدخل منه، واستطعت بحنكتها في التدافع أن تجد لها موطئا داخل الضريح محملة بابنها المريض، الذي جاءت به لتطلب له الشفاء من الوالي الصالح، وتتبرك ببركاته الخارقة، وتتوسل إليه أن يوسع تجارة زوجها، وأن يوفق أبنائها في دراستهم فضريح الوالي سيدي محمد بن سليمان عبارة عن حجرة كبيرة ذات باب خشبي كبير، يحرسها رجل عجوز يكنى ببا بهلول، ويتواجد وسط الحجرة قبر رخامي، وبجانبه صندوق حديدي يضع فيه

الزائرين صدقة، وفي أرجاء الحجرة شموع، وقد أضيئت بينما زوجة عم إبراهيم تتمتم:

– تسليم. تسليم. تسليم.

وابنها الصغير محمل على ظهرها يبكي وهي تحاول إسكاته بإشارة من شفتيها (شت)، واستلت من محفظتها الجلدية الشموع، ووضعتهم في جوانب الجدران، وأشعلتهم وهي تتمتم:

– تسليم سيدي محمد بن سليمان. تسليم.

ووضعت يدها فوق القبر الرخامي، تتوسل والدموع تنهمر من عينيها، وطافت بإبنها المريض حول القبر الرخامي ثلاث مرات، وتتملق باكية وتقبل القبر الرخامي قبلات متتابعة، ومسحت بيدها على القبر، ومررت يدها التي مسحت بها القبر على ابنها وتمتمت:

– ببركة سيدي محمد بن سليمان ستشفى يا ابني.

فوضعت راحتها على القبر الرخامي (يا سيدي محمد بن سليمان أنت أعلم بما بيا وبما أصاب ابني من أعين الحساد).

ومسحت بيدها على القبر، ولسانها لا يكف عن الدعاء، والتوسل، فقرأت الفاتحة، وسطعت انفها رائحة أعواد الند والبخور التي وضعها الزائرين، وارتفعت في الأركان أصوات الدعاء يردده الزائرون، وغير بعيد عن الضريح مجموعة من الفقهاء يرتلون بصوت مهموس آيات من القرآن الكريم، وأخرجت من محفظتها الجلدية حفنة من الدراهم، ورمتها في الصندوق الحديدي، وهي تدعو وتتوسل أن يهب ابنها الصغير الحياة، وأن يشفى من مرضه، ووعدت الوالي الصالح بأن يوم يشفى ابنها ستتكفل بتزين جدران مقامه بالشموع، وتترك في الصندوق الحديدي كل ما لديها من مال، وتطعم المتسولين الذين يفدون إليه وتمتمت:

– تسليم أسيدي محمد بن سليمان. تسليم.

ووضعت شفتيها على القبر الرخامي العريض، فطبعت قبلة من أعماق قلبها ومتمنية شفاء ابنها الصغير، وخرجت من الباب الخشبي الكبير الذي يقف في بابه با بهلول، الذي يحث المتباطئات بالإسراع بأن آخريات وآخرين في انتظار دورهم، وجففت دموعها بمنديل من ورق، ووقفت تنظر إلى الجدران الخارجية التي تحوي القبر الرخامي وتمتمت:

– تسليم أسيدي محمد بن سليمان. تسليم.

فهي تمنت لو بقيت في الداخل لوقت طويل، تتوسل وتتأمل قبر الوالي الصالح وتتخيل صورته في خيالها الواسع، ولكن با بهلول بصوته الغليظ لا يسمح بمعاودة الزيارة مرة ثانية، إلا إذا نفحته ببعض الدراهم، ورغم ذلك فهي توسلت لابنها وزوجها بما جاد لسانها من الأدعية التي تحفظها عن ظهر قلب.

الفصل الخامس عشر

كان منهمكا في تدوين الأرقام، وحوله مذكرة صغيرة شطب اسطرها، وأعاد أرقامها، وبين يديه ورقة مزقها، كان يدون الأرقام وفي وجهه آثار توحي أنه منفعل، وكانت يده تضطرب كأنما لم تمسك بقلم من قبل، كان يلتفت فترة بعد أخرى نحو باب المحلبة ليتأكد من أنها لن تفاجئه بشخص، سيتجسس على الأرقام التي سيقامر بها، سعيد الروندة كان ذهنه مشتت وموزعا بحيث لا يدري، هل يدون الأرقام التي افرزها، أو يكف عن تدوينها، لذلك شطب على العديد من الأرقام التي وضعها، وأعاد تدوينها من جديد متوجسا من أن تكون من الأرقام الرابحة، ودخل عمر زروال، وقد قرأ في وجهه علامات استفهام وانفعال، فحاول أن يخفي ما دون من أرقام، ولكن عمر زروال تقدم إليه في كثير من الثقة والعزم وفي مزيج من التودد والسخرية قائلا:

– شي ربحة هادي سعيد الروندة.

أما سعيد الروندة فلم يجد في عمر زروال الشخص الذي يخشى أن يطلِع على ما دون من أرقام، وإن كان يود إن لم يطلِع فعمر زروال صديقه.

وأجاب سعيد الروندة بحركة من رأسه:

– ب لا.

وانشغل بتدوين أرقام الحظ، ومكبا على استخلاص أرقام الخيول الجيدة لانتقائها للمشاركة غدا في الرهان، ومن عادته إذا كان مكبا على فعل شيء، أو قراءة كتاب لا يجب أن يتحدث معه أي شخص، وإذا ما تحدثت معه يجيبك برأسه، ولا يريد من ينغص عليه، ويكدر صفوه في التأمل وتدوين الأرقام، وبذلك كان رجل مسلوب العزيمة والثقة في نفسه، لا يعمل، يعيش على أجور الكراء الذي يتقاضاه من بيته، الذي أجره لمجموعة من العمال، كان ينفق ماله في القمار بلا حساب والليالي الحمراء التي يحييها مرة في الأسبوع إذا امتلىء عنده الجيب وفاض بالنقود فمصيرهم السهر، يجلس في الركن الأيمن من محلبة عم إبراهيم متأملا الأرقام، وواضعا المذياع فوق الطاولة الرخامية الذي لا يفارقه

صباحا مساء، جالسا بمفرده، وعمر زروال في ركن آخر منتظرا ريثما ينتهي سعيد الروندة من عملية فرز الأرقام حيث يمكن له تحدث مع صديقه.

وكسر عم إبراهيم هدوءه بسؤاله عن قرب ميعاد الأخبار، فظهر الاستياء على وجهه فقال:

– أراك يا عم إبراهيم تسأل عن الأخبار هل تملك شركات سيذاع خبر إفلاسها في أخبار ليلة.

عم إبراهيم ضاحكا:

– قلت لنستمع لأخبار أحسن من النظر إليك.

وفي هذه لحظة قدِم الفقيه التامي الذي كان في إحدى الولائم حسب تخمينات سعيد الروندة في خياله التي كانت صائبة، فسلم على الحاضرين، واتخذ مجلسه بعد أن أفسح له عمر زرول أن يمر ويجلس على يساره، ورحب به عم إبراهيم، ومد له كأس شاي ساخن كعربون محبة وإخلاص، ورشف منه رشفتين ولم يتكلم.

كيف حالك يا فقيه التامي هكذا بادره عم إبراهيم.

– الحمد لله على فضله ونعمه.

– صحيحة بخير وأهل البيت.

– كل شيء بخير يا عم إبراهيم.

– هكذا دعا عم إبراهيم بطول عمر فقيه.

وندت نحنحة عن سعيد الروندة، أما عمر زروال فقد أوغل عينيه في أرقام الرهان مندهشا، كيف أمكن لصديقه أن يستخلص هذه الأرقام المشكوك فيها.

فيما عم إبراهيم انشغل بغسل الكؤوس، وتنظيف الأواني، ومسح الطاولة الرخامية فحل صمت مؤقت، فارتفع صوت المذياع، وترامى من الخارج نباح كلب، وصراخ أحد سكارى، فنظر سعيد الروندة نحو مدخل محجوب بفترينة زجاجية، فرأى عم إبراهيم، يغسل الكؤوس بتتابع، وصوت الماء منساب من الصنبور يحدث صوتا موسيقيا، واسترق نظرة

خاطفة في اتجاه الفقيه التامي الذي بدأت عيونه يغلب عليهما النوم، وقال مخاطبا عمر زروال:

– ماذا تراءى لك في هذه الأرقام.

لاحظه عمر زروال بوجوم قائلا:

– رهان صعب ولكن شكي يحوم حول رقم 7.

فيما سعيد الروندة قائلا:

– دوِن تخميناتك وفي الأخير نختار الصحيح منها.

فعاد يقول:

– ومن أدرى هذا الرقم 7 هو المفاجأة.

فأكد جوابه بهزة من رأسه قائلا:

– كل شيء ممكن.

لست عالم غيب أو فلكي، ولكن الكل ممكن، ربما قد يحدث هذا الرقم مفاجأة في سباق اليوم كما الأيام الماضية، ولم يزل هذا الرقم يصدم المقامرين ويكبدهم خسائر.

يتفقد الأرقام واحدا بواحد، ويدرس إمكانيات وقدرات الحصان في المضمار ومدى سرعته، وهل من المتخصصين في هذه المسافة، وكم من مرة أحرز مراتب متقدمة في هذه المسافة، وهل أمكن أن يخلق مفاجأة، ويربك المقامرين،كلها احتمالات يضعها عمر زروال نصب عينيه، فهو لا يفرز رقم حتى يكون قد انتهى من دراسته وتمحيصه فيضعه جانبا، وبذلك منتقلا إلى الأرقام الأخرى للخوض في خباياها، ريثما يأخذ فكرة عن كل رقم لينتقي في الأخير هو وصديقه سعيد الروندة الأرقام الممكن دخولها في مقدمة الفائزين، وفي الأخير يبقى للحظ دوره، وهل يمكن أن يكون الى جانبهما؟ ويكونان من الفائزين أم العكس.

الفصل السادس عشر

داهمت موجة الحرارة مدينة بنسليمان، واشتدت في الحواري الضيقة للمدينة، وطوقت زنقة الدغاغية المعزولة عن باقي الأزقة، وكان سعيد الروندة قد تحرر من ملابسه الثقيلة، وعوضها بشورت اصفر وقميجة صفراء فضفاضة يخال للمرء انه من إحدى فرق هيب_هوب، وبحلول الصيف غير مواعيد مجيئه للمحلبة، فأصبح يستيقظ باكرا للذهاب إلى البحر، والهرب من موجة الحر التي تتلظى فيها المدينة، في حين كان يزور محلبة عم ابراهيم خمس مرات في اليوم تقلصت زيارته إلى مرتين في الصباح لتناول الفطور، ومن ثم أخذ سيارة أجرة نحو البحر، وفي المساء للسهر مع عم إبراهيم، وجماعته الفقيه التامي، وصديقه الشاعر نجيب الراوي، وعمر زروال، وسيوح، للهروب من حرارة جدران البيت، في حين كان عم إبراهيم لا يعرف البحر، ولم يعرف ماءه إلى جسده سبيلا، ولم يزوره يوما ما في حياته، ولم يقف على رماله الذهبية، بينما أبناء زنقة الدغاغية ينتظرون فصل الصيف على أحر من الجمر للذهاب إلى البحر، ولكن مشاورتهم للذهاب إلى البحر تبخرت لانشغالهم بعرس كبير سيقام في زنقتهم، إذ أذيع خبر تزويج فتاة من زنقة دغاغية إلى

شاب يعمل في الديار الأوروبية، فسال لعاب أبناء زنقة الذين شاهدوا سيارات جديدة ذات ترقيم أوروبي، فتسألوا كيف تعرفت على العريس؟ هل كانت على علاقة به؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، فلم يجدوا لأسئلتهم أجوبة كافية لتشفي غليلهم من التقصي ومعرفة الرابطة التي جعلت شاب مهاجر يقترن بفتاة من زنقتهم، ففي أوروبا فتيات أحسن من فتيحة، ومن اليوم لا يجب على كل فتاة أن تيأس، ففتيحة فتاة في العشرينات من عمرها، متوسطة القامة، ليست بالجميلة، ولا تتمتع بقدر كبير من الجمال، حتى واحد من أبناء زنقة دغاغية لم يربط معها علاقة عاطفية، فهي انطوائية، وتنفر من الرجال، ولا تخرج للتفسح في الحدائق إلا بصحبة خالتها سعاد والدة توفيق شريويطة، فهي تميل إلى العنف أكثر من الحوار، ذات طبع قوي، وخير دليل على ذلك عيناها التي تنطقان بالشراسة، فأمها توفيت وهي في العاشرة من عمرها، وعنيت بها خالتها سعاد، فدللتها تلبي طلباتها بلا حساب، مما أدى بها أن طُردت من المدرسة، والتحقت بمدرسة الحلاقة، ونالت دبلوم في الحلاقة، وعملت في صالونات الحلاقة لأعوام، وتمرست في الحرفة رغم أنها كانت دائمة الشجار مع زبوناتها، حينما تقوم بالأعمال المنزلية، فإنها تكسر كل ما

تجده أمامها، إذا تلبستها حال جنونية، فإنها تكسر كل ما تجده أمامها، وتضرب فهي تتميز بنفسية مضطربة حتى قالوا عنها أنها مسكونة وأنها متزوجة بجني، وويل للمجمع من النساء في زنقة أن يتحدثوا عنها آو تكون مادة خام لجلستهم، فكانت نسوة زنقة يستعدنا لها في كل حالة، إن كانت تريد بهم خيرا فبالخير يرحبنا بها، وإن كانت تريد بهم شرا يتفادين مواجهتها، وكانت سليطة اللسان، لا تكف عن النميمة والتحدث عن عيوب الأخريات، فهذه تخون زوجها تتركه حتى ينام وتخرج لدى صديقها، وفلانة تستلم القفة مجانا من صديقها الخضار في غفلة من زوجها، وأخرى تتاجر في بنات زنقة لزبائنها بعدما أن فاتها القطار. كل ذلك من ملاحظتها العميقة، فهي تعرف أسرار زنقة من ألِفها إلى يائِها، ولا تخفى عنها خافية، وكانت بحكم مهنتها حلاقة تخاطب زبونتها، وتسألهم من أسئلة النساء تلك الأسئلة التي يتسلونا بها ويمضينا بها الوقت، ومن خلال تلك المهنة تعلمت وتعرفت على مشعوذات وعاهرات. حتى أصبح بنك صديقتها بلا حساب، وفي الصالون يتم تناقل أحاديث نساء أزقة المدينة كلها، فلا يتركوا موضوع إلا وأخذوا منه، ويستوفون من شتى المواضيع، وكانت فتيات زنقة يتفادينها إذا كانت

قادمة، أو خارجة من باب منزلهم خوفا من الاصطدام بها، فكانت تختلق لهن الأعذار، لتجد من أين تنفذ لهن، ورغم فقدها أمها سرعان ما تناست كل شيء، وعوضتها خالتها بالحنان الذي كان ينقصها فنساء زنقة يبغضانها ويمقتانها بسبب شغبها، وسبها لأزواجهن الذين تصفهم بالشاذين، وذلك ما يزيد في كرههم لها، إلى درجة تمنيهم أن تصاب بمرض يقعدها عن الكلام والفعال، لذلك أبغضوها جميعا، وألصقوا بها جميع النواقص، ورموها بكل فعل قبيح، وتم وصفها بالمتسلطة والمتعجرفة والمسكونة إلى ذلك من الصفات التي تحط من عزيمتها، وكانت تتلذذ حينما تمسك بإحدى ضحيتها من شعرها، تنتفها نتفا، ولا تتركها حتى تلبي رغبتها المريضة، وحينما داع خبر خطبتها من شاب يقيم في الديار الأوروبية، استهزءوا بها وظنوا الخبر إلا كذبة من أكاذيب ابريل، وما اقترب الصيف حتى عاينوا سيارة مرقمة ذات ترقيم أوروبي، وهاهم تأكدوا وابتلعوا الصدمة، وبدأت الاستعدادات من جانب عائلتها لإنجاح الحفل، فأقيم في الطريق الذي يواجه زنقة دغاغية وسور مدرسة الفارابي قيطون كبير، كانت نساء زنقة وخصوصا والدة توفيق شريويطة الخالة سعاد من أسعد نساء زنقة بزواج فتيحة ابنة أختها، أما نساء زنقة

فتظاهرن بالسعادة والفرح لإنجاح الحفل، وفرحنا بالتخلص منها نظرا للمتاعب التي تسببها لهم في الزنقة من نقل للأخبار والتكلم في أزواجهن ونقائصهن، وكان توفيق شريبوطة قد خزن كمية من الخمور في بيته خصيصا لهذه المناسبة، فيما أكب أبناء الزنقة يساعدون العمال العاكفين على بناء (قيطون ثاني) للنساء، فنصبت أعمدة حديدية، وأسدلت الستائر عليها، وفرشت الأرضية بزرابي مزركشة، وصفت المقاعد، وركبت في جوانب القياطين مكبرات صوت، وتم بناء منصة مخصصة للجوقة التي ستحيي الحفل، ورُش المكان بالروائح التي عبق بها الجو، فيما ادخل هذا الزفاف نوع من البهجة على صدور أبناء زنقة وفي وسط (القيطون) تم وضع كرسيين كبيرين مخصص للعروسين، وتم الانتهاء من وضع اللمسات الأخيرة على (القيطونين) من تمرير خيوط كهربائية لها، وساد بعد ذلك زنقة الهدوء إلا من خلال بعض تعليقات من بيت العروسة أو كلمة خارجة من القيطون الذي اتخذوه أبناء الزنقة هذا اليوم مجلسهم عوض كراج عبد الرحيم سيكليسي، وراحوا يلعبون الكارطة داخل القيطون، ويشربون المشروبات الغازية، واستمر هذا النوع من الهدوء مطبقا على المكان حتى العصر، حين حلت بزنقة سيارة كبيرة

محملة بتجهيزات الجوقة الموسيقية التي ستحيي الحفل، فوجدت المنصة قد أعدت كما يحلو لهم، وما عليهم إلا بتثبيت أجهزتهم من بيانو وميكروفونات.

وما إن انتهوا من تثبيت كل شيء، حتى دعتهم الخالة سعاد خالة العروسة لتناول الغداء، فما كان منهم إلا أن أمروا أبناء زنقة أن يلقوا لتجهيزاتهم بالا، فأخذا أفراد الجوق فترة من الراحة، تناولوا فيها الغداء، وشربوا الشاي، ودردشوا فيما بينهم وما هي إلا سويعات، حتى جاء المدعوون والمدعوات محملين بالهدايا وكراطين سكر، فانهالت على بيت العروسة الزيارات وعبارات الإطراء.

– مبارك أو مسعود.

– الله يدوز كلشي بخير.

ورحبت خالة العروسة بالضيوف، فيما كلمات الإطراء من كل حدب وصوب تنهال كسيل زاخر على عائلة العروسة، كل ذلك كان يمشي كما كان متوقعا وخالة العروسة ترحب بالضيوف:

– مرحبا بكم.

– مبارك اومسعود.

– عقبال لأبنك.

– عقبال لأبنتك.

فيما وقف بجانب الباب المؤدي نحو القيطون شابان من فتوات زنقة يمنعان السكارى والنشالين والغير مرغوب فيهم، وهكذا سارت الأمور كما يشتهي منظمي الحفل، حتى امتلأت القياطين عن آخرها بالمدعوين والمدعوات، وبقي خارجها الغير مرغوب فيهم من السكارى.

– مرحبا بكم.

وماهي إلا دقائق حتى امتلأت زنقة من كل جانب، وضاقت بزائريها من الأزقة الأخرى الذين تناهى إلى مسمعهم أن حفل في زنقة دغاغية ستحييه جوقة معروفة، فتراكضوا مسرعين وامتد بناشري الخبر أن مغني الحفل مغني شعبي معروف، مما زاد بامتلاء زنقة وجعلها ذاك اليوم مصدر الحديث في كل الدروب والأزقة، وحج محبي المغني من كل الأزقة

والدروب فلم يجدوا مكانا يقفون فيه، فاعتلوا سور المدرسة، ولم يطل الانتظار حتى صعد أحد أفراد الجوق يجرب صوت ميكرو. اح. اح.

وتبعته جل أفراد الجوقة، فصعد المغني المشهور الملقب بالعلمي، فما كادت تراه الأعين المصوبة في اتجاه المنصة، حتى جن جنونهم فرحا وسرورا، فقد اعتادوا أن يشاهدوه على شاشة التلفاز، وهو ينشط إحدى سهرات الأسبوعية فهم لم يروه في حياتهم مباشرة وها هي واحدة من أمانيهم تتحقق، وراحوا يهللون ويصفقون ويطلبون منه أن يغني لهم إحدى أغانيه المشهورة، وصوت أحد سكارى يصيح طالبا أن يغني أغنية:

– شكارتي كاع خوات ناري داوها لي البنات.

وآخر حاول أن يقتحم الحفل ليأخذ معه صورة تذكارية، ولكن فتوة الزنقة كان لهم رأي آخر، وراحوا يهتفون باسمه ويهللون، والنساء يزغردن، فيما هو انحنى محييا المدعوين والمدعوات صغار وكبار، وطلب منهم الهدوء والعودة إلى أماكنهم، فبدأ العزف وارتفعت الحناجر بالزغاريد، وترنح السكارى خارج القياطين، بينما أصداء الموسيقى ازدادت حدة بفعل مكبرات الصوت، وأصوات الكمان والدف تتمايل على خصور الشيخات

اللاتي تنشطن الحفل، وتدخلن السرور والفرح على صدور السكارى بشقائهم، فيما العروسة وقد حملت في عمارية على الأكتاف، وقد جلست إلى جانب عريسها وسط القيطون، وتحلق حولهم النساء والرجال، وشباب يلتقطون لهم صور للذكرى، بينما كؤوس الشاي تقدم للمدعوين، وكؤوس الخمر تدور في الخفاء، ونساء يزغردن وعبارات المدح تنهال على العروسين من المدعوين والمدعوات متمنين لهم السعادة والنجاح في حياتهم الزوجية، وصوت سكارى غارقين حتى الثمالة، واتصل المكان بالغناء والرقص والهتاف والزغاريد التي تتعالى بعد كل مقطع من خالة العروسة، فيما الحفلة في إبان ازدهارها حاول بعض سكارى التدافع نحو مدخل باب القيطون للدخول ولكن فتوة الحفل كانوا لهم بالمرصاد بالصفع والركل والسب، فكل شيء يهون عندهم من أجل رؤية مغنيهم المفضل، وقد غاص أبناء الزنقة في الرقص والغناء فرحين لهذا المنظر البهيج الذي نادرا ما حضروا لمثل هذه الحفلات التي تشهد الطرب والرقص، فيما الحفل في أوجه، كان الأطفال وأبناء زنقة يشملهم سرور لا مثيل له، ووقفت نسوة كثيرات يرقصن وسكارى يتابعنا، واختلط الغناء بالهتاف، والرقص بالطرب، واستولى المنظر على

السكارى الذين يتابعون الحفل من كوة القيطون، فانجذبت أرواحهم إليه، وعميت بصيرتهم، واندفعوا بما لديهم من قوة للدخول، ولكن فتوات حالوا عن أمرهم فبقوا خارجا، وسرهم رؤية مغنيهم المشهور سرورا لا مثيل له، ورقص قلبهم، وتنبهت حواسهم واشرأبت أعناقهم نحو مغنيهم (العلمي)، وانتصف الليل، ودعي المدعوون إلى الموائد، ورفعت صينيات الشاي والحلوى، وحلت محلها صحون الدجاج والمرق، ثم سُمِع صوت أحد سكارى، وهو يغني بصوت مبحوح يرافق غناءه تصفيقات وعبارات السب، في حين أكل المدعوون بنهم كبير.

وقامت خالة العروسة ترحب بالضيوف:

– مرحبا بكم.

– تفضلوا.

– كلوا بصحتكم.

وقد ارتفع صوت سكارى خارج القيطون احتجاجا على منعهم من الدخول، ثم سمعت قناني فارغة للخمور وهي تكسر، وصراخ المتشردين

وعاد المدعوون إلى مقاعدهم بعد أن أكلوا وشربوا، ورجعوا بأرواح جديدة وانطلق صوت المغني (العلمي).

– سولوه سولوه يحكي ليكم أش جاري.

وفي القيطون اهتزت نسوة يرقصن ويصفقن، وقد تهدلت شعورهن، والشيخات تدكن الأرض، ويتمايلن، والزغاريد تتعالى، ثم استمر الحفل حتى انتهى المغني من تأدية مقطع موسيقي حتى أخذ الجوق فترة من الراحة، وفترة الراحة فرصة ينطلق فيها البراح ينادي بصوت غليظ:

– هذه مائتين درهم من عند لعربي.

– اسمع ثلاثمائة درهم من عمك أحمد.

– مائة وخمسون درهم من عند جيلالي الجزار.

وترد النساء على كل نفحة بزغاريد، فيما البراح يمدح ويمجد المانحين، ويحث الآخرين على الدفع والعطاء بسخاء، ثم ينتقل إلى شخص آخر بعدما يتسلم منه الغرامة صائحا.

– هذه من شعيبة ولد جيلالي.

وتنطلق الضحكات هنا وهناك، وقد انصرف بعض الجيران، وثم بعد ذلك أخرجوا العروسة محملة في عمارية على الأكتاف، وزغاريد النسوة تتعالى وطافوا بها قليلا في أرجاء القيطون، وارتفعت أصوات النساء والفتيات بالغناء والزغاريد، وكانت خالة العروسة تبكي لفراقها، فأنهكت الأكتاف، وتم وضع العمارية التي تتربع عليها العروس كملكة برفق وتسلمها زوجها فقبل جبينها وخرجت العروس تمسك بذراع زوجها، وغادرت البيت، وأطلقت خالتها زغرودة فتبعتها نسوة زنقة بالزغاريد وهتافات الصبيان.

– داها وداها أو الله ما خلاها.

فتتبعتها الأعين، وصفت عند مدخل الزنقة سيارات كثيرة من عائلة العريس مزينة بالورود، وقد خطت عليها بالورود زفاف سعيد، فأطلت رؤوس من البيوت، وصبيان يهتفن وعلى وجوههم الفرح والسرور، وفتحت النوافذ، وبُحَّتِ الحناجر، وصوت منبهات سيارات يتتابع حتى دخلت العروس إلى السيارة شابكة يدها في يد زوجها وهي منحنية الرأس غارقة في حمرة من الخجل، وتبدو فاتنة في فستان زفافها تحت أنظار المتطلعين، وصوت منبه سيارات لا يكف، حتى خرجت السيارات من

مدخل الزنقة، ومضى الركب نحو الشارع، ثم مالت نحو المسجد العتيق، فدار الركب حوله ثلاث مرات، وتبعه أبناء الزنقة بدراجاتهم الهوائية وهم يرددون أغانيهم.

– داها وداها.

– والله ما خلاها.

تمت

HUMAN
for Publishing and Distribution
دار إنسان للنشر والتوزيع

Insanfirst@gmail.com

+201113393920

صفحة الدار على فيس بوك

https://www.facebook.com/insan.pub

وسبب تفضيل محلبة عم إبراهيم على
أخريات لجوها العائلي وقدمها وإنسانية
صاحبها الذي لا يرد كل سائل أو محتاج
خائبًا
مهما طلبهُ السائل !
وهي أرحم محلبة بذوي الدخل المحدود

HUMAN
for Publishing and Distribution
دار إنسان للنشر والتوزيع